❀ ❀ ❀

تفسير سورة القتال

وهي مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بآيات الله، ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثواباً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء في حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم». ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن

لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟﴾ أي: أهلكتموهم قتلاً ﴿فَشُدُّوا۟﴾ وثاق الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨]. ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جُرَيْج. وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دم، وإن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت. وزاد الشافعي، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً. وهذه المسألة مُحَرَّرة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي، عن جُبَير بن نُفير؛ أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني سَيَّبْتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يُزيغ الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة». وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جُبَيْر بن نُفير، عن سلمة بن نُفَيْل السكوني، به. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جبير بن نُفَير، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فَتْح فقالوا: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرَفِّع قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين الشام». وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رُشَيْد، به. والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى ألاّ يبقى حرب. وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله ﷻ. وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله، ﷻ. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونَكَال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال في سورة براءة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله في طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مُرَّة، عن قيس الجذامي ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكفر عنه كل خطيئة،

ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة الإيمان». تفرد به أحمد، رحمه الله. حديث آخر: قال أحمد أيضاً: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير بن سعيد، عن خالد بن مَعْدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوته منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه». وقد أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبي قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّيْن». وروي من حديث جماعة من الصحابة، وقالوا أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود. والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩]. وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي: عرفهم بها وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة. وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا أن الملك الذي كان وُكِل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له، فيعرّفه كلّ شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزلة في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن ابن أبي حاتم، رحمه الله. وقد رود الحديث الصحيح بذلك أيضاً، رواه البخاري من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنين من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا». ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء في الحديث: «من بَلَّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة ـ وفي رواية: تعس عبد الخميصة ـ تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»، ألا: فلا شفاه الله. وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء كلهم. فقال أبو سفيان: يو بيوم بدر، والحرب سِجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسوءني، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْما وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل من مِعيً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: يوم جزائهم. وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾

يعني: مكة، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، ﷻ، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لماخرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إليّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك». فأعدى الأعداء من عَدَا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. ثم قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: قال عكرمة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني: غير منتن. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تغيّر ريحه. وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يعني: الصافي الذي لا كَدَر فيه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية». ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٦]، وفي حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها». وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل». وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُرَيري، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي في «صفة الجنة»، عن محمد بن بَشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجَريري، به. وقال: حسن صحيح. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادي، حدثنا أبو عمران الجَوْني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشخُبُ من جنة عدن في جَوْبَة، ثم تصدع بعد أنهاراً». وفي الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري، وعبد الله بن الصقر السكري قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلي، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضاً أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط ابن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد». وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن

عبيدة، عن يزيد بن هارون، أخبرني الجريري، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر. وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعاً. وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مع ذلك كله. وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حاراً شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذاً بالله من ذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكترثون له. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: ألهمهم رُشدَهم. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٦ ـ ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه. وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء في أسمائه، عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وقال البخاري: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا حازم، حدثنا سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى، والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ: ٥٢]. وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يأتي كونه آمراً بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هَزْلي وجدّي، وخَطَئي وعَمْدي، وكل ذلك عندي». وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت». وفي الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذي شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل. رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به.

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى: حدثنا مُحرَّز بن عون، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نَصِيرَة، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ«لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون». وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني». والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝٢٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، ﷿، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء: ٧٧]. وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتملة على حُكم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال: مشجعاً لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝٢٣﴾، وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال.

وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة. قال البخاري: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مُزَرّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن ﷿، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك». قال أبو هريرة: أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾. ثم رواه البخاري من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مزرد، به. قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾». ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَّة ـ به. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النَّساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه». تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعاً، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، ﷿، ما كنت على ذلك». تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر. وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَى، حدثنا فِطْر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخاري. وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثمامة الثقفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طَلِقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبي ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها

بتته». وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به. وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رَحِمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال: من يبتها أبته». تفرد به من هذا الوجه. ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن الرداد ـ أو أبي الرداد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه أبو داود والترمذي، من رواية أبي سلمة، عن أبيه. والأحاديث في هذا كثيرة. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة، عن أبي عمر البصري، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم».

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه. قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله ﷻ يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب في نفس عمر، رضي الله عنه، حتى ولي، فاستعان به. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: غرهم وخدعهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطل على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]. ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على

نفاق العمل والاعتقاد في أول «شرح البخاري»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم ـ فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم. وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل. ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحرجكم تبخلوا: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾. قال قتادة: «قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك

عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، أي لا ينفكون عنه. وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره. وقال ابن أبي حاتم: وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس». تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال




(٤٧) سورة محمد مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾

واعلم أنه تم الكلام ههنا ، ثم قال تعالى (بلاغ) أى هذا بلاغ ، ونظيره قوله تعالى (هذا بلاغ للناس) أى هذا الذى وعظتم به فيه كفاية فى الموعظة ، أو هذا تبليغ من الرسل ، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الأربعاء العشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) فإن قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كاطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك ؟ مما لا يخلو عنه الإنسان فى طول عمره فيكون فى إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أى لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك ، وسنبين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه ، وتعالى الله عن الظلم ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من المراد بقوله (الذين كفروا) ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم (الثانى) كفار قريش (الثالث) أهل الكتاب (الرابع) هو عام يدخل فيه كل كافر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الصد وجهان (أحدهما) صدوا أنفسهم معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل (وثانيهما) صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين (قال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) وعلى هذا بحث : وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد ، والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم ، فنقول التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ماعداه ، ولا سيما إذا كان المذكور أولى بالذكر من غيره

وههنا الكافر الصاد أدخل فى الفساد فصار هو أولى بالذكر ، أو نقول كل من كفر صار صاداً لغيره ، أما المستكبر فظاهر ، وأما المستضعف فلأنه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول فإنه بعد ما يكون متبوعاً يشق عليه بأن يصير تابعاً ، ولأن كل من كفر صار صاداً لمن بعده لأن عادة الكفار اتباع المتقدم كما قال عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) أو مقتدون ، فإن قيل فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة فى ذكر الصد بعد الكفر نقول هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه تقول أكلت كثيراً وشبعت ، والكفر على هذا سبب الصد ، ثم إذا قلنا بأن المراد منه أنهم صدوا أنفسهم ففيه إشارة إلى أن ما فى الأنفس من الفطرة كان داعياً إلى الإيمان ، والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى المصدود عنه وجوه (الأول) عن الإنفاق على محمد عليه السلام وأصحابه (الثانى) عن الجهاد (الثالث) عن الإيمان (الرابع) عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام ، وذلك لأن النبى ﷺ على الصراط المستقيم هاد إليه ، وهو صراط الله قال تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله) فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى الإضلال وجوه (الأول) المراد منه الإبطال ، ووجهه هو أن المراد أنه أضله بحيث لا يجده ، فالطالب إنما يطلبه فى الوجود ، وما لا يوجد فى الوجود فهو معدوم . فإن قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها ؟ نقول أن الابطال على وجوه (أحدها) يوازن بسيئاتهم الحسنات التى صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقى لهم سيئات محضة ، لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات (وثانيها) أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل قال تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأن العمل لا بقاء له فى نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد فى الحقيقة غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلاناً عمل صالحاً وعندى جزاؤه فيبقى حكما ، وهذا البقاء حكما خير من البقاء الذى للأجسام التى هى محل الأعمال حقيقة ، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبداً ، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل ، وقد أخبر أنى لا أقبل إلا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا لله تعالى (وثالثها) لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل ، وذلك لأن من قام ليقتل شخصاً ولم يتفق قتله ، ثم قام ليكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل ، وأخبر عن نفسه أنه قام فى اليوم الفلانى لقتله وفى اليوم الآخر لإكرامه يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ

فإنه حقيقة واحدة ، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام ، وكذلك من قام وقصد بقيامه إكرام الملك وقام وقصد بقيامه إكرام بعض العوام يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فوق نسبة الملوك إلى العوام فالعمل للأصنام ليس بخير. ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الأوثان لا يكون عمله خيراً ، لأن مثل ما أتى بهلوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم (الوجه الثانى) الإضلال هو جعله مستهلكا وحقيقته هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبراً بسبب كفره ، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام . فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيما لخسته كذلك الكافر ، وأما المؤمن فبقدر مايتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله ، كالملك الذى لا ينقاد لأحد إذا انقاد فى وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته (الوجه الثالث) (أضله) أى أهمله وتركه ، كما يقال أضل بعيره إذا تركه مسيباً فضاع .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الكفار بين حال المؤمنين .

فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح ، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) وقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم) وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه فى سورة العنكبوت فنقول ههنا جزاء ذلك قوله (كفر عنهم سيئاتهم) إشارة إلى مايثيب على الإيمان ، وقوله (وأصلح بالهم) إشارة إلى مايثيب على العمل الصالح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى فى العذاب خالداً ، فنقول لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتباً على الكفر والصد ، فمن يكفر لا ينبغى ان تضل أعماله ، أو نقول قد ذكرنا أن الله رتب أمرين على أمرين فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحاً أصلح باله أو نقول أى مؤمن يتصور أنه غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام ، وعلى هذا فقوله (وعملوا) عطف المسبب على السبب ، كما قلنا فى قول القائل أكلت كثيراً وشبعت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وآمنوا بما نزل على محمد) مع أن قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه ؟ فنقول : أما وجهه فبيانه من وجوه (الأول) قوله (والذين آمنوا) أى بالله ورسوله واليوم الآخر ، وقوله (وآمنوا بما نزل) أى بجميع الأشياء الواردة فى كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن ، تقول خلق الله السموات والأرض وكل شىء إما على معنى وكل شىء غير ما ذكرنا . وإما على العموم بعد ذكر الخصوص (الثانى) أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعنى آمنوا أولا بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتى به غير الله ، فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ، ويجوز أن يكون المتأخر ذكراً متقدماً وقوعاً ، وهذا كقول القائل آمن به ، وكان الايمان به واجباً ، أو يكون بياناً لإيمانهم كأنهم (وآمنوا بما نزلّ على محمد) أى آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيباً أى وكان خروجى جيداً حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين أن إيمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلا من عند غير الله (الثالث) ماقاله أهل المعرفة ، وهو أن العلم العمل والعمل العلم ، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء : إذا عمل العالم العمل الصالح علم مالم يكن يعلم ، فيعلم الانسان مثلا قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه ، فإذا اتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى مالم يعلمه أحد إلا باطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن ، وهذا هو المعنى فى قوله (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحاً حمله علمه على أن يؤمن بكل ماقاله محمد ولم يجد فى نفسه شكا ، وللمؤمن فى المرتبة الأولى أحوال وفى المرتبة الأخيرة أحوال ، أما فى الإيمان بالله ففى الأول يجعل الله معبوداً ، وقد يقصد غيره فى حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمر ويجعل أمراً سبباً لأمر ، وفى الأخيرة يجعل الله مقصوداً ولا يقصد غيره ، ولا يرى إلا منه سره وجهره ، فلا ينيب إلى شىء فى شىء فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول ، وأما ما فى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول أولا هو صادق فيما ينطق ، ويقول آخر لا نطق له إلا بالله ، ولا كلام يسمع منه إلا وهو من الله ، فهو فى الأول يقول بالصدق ووقوعه منه ، وفى الثانى يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكى كلام الغير لا ينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا فى نفس الحكاية ، وقد علم هو أنه حاك عنه كما قاله ، وأما فى المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلا والحياة العاجلة حالا وفى المرتبة الاخيرة يجعل الحشر حالا والحياة الدنيا ماضياً ، فيقسم حياة نفسه فى كل لحظة ، ويجعل الدنيا كلها عدماً لا يلتفت إليها ولا يقبل عليها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وآمنوا بما نزل على محمد) هو فى مقابلة قوله فى حق الكافر (وصدوا) لأنا بينا فى وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد ﷺ ، وهذا حث على اتباع محمد

كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

ﷺ ، فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله ، وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه ، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله ، لاجرم حصل لهؤلاء ضد ماحصل لأولئك ، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (وهو الحق من ربهم) هل يمكن أن يكون من ربهم وصفاً فارقاً ، كما يقال رأيت رجلا من بغداد ، فيصير وصفاً للرجل فارقاً بينه وبين من يكون من الموصل وغيره ؟ نقول لا ، لأن كل ماكان من الله فهو الحق ، فليس هذا هو الحق من ربهم ، بل قوله (من ربهم) خبر بعد خبر ، كأنه قال وهو الحق وهو من ربهم ، أو إن كان وصفاً فارقاً فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم لأن الحق قد يكون مشاهداً ، فإن كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازل من الرب ، بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى لنا .

قوله تعالى : ﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ أى سترها وفيه إشارة إلى بشارة ماكانت تحصل بقوله أعدمها ومحاها ، لأن محو الشيء لاينبيء عن إثبات أمر آخر مكانه ، وأما الستر فينبيء عنه ، وذلك لأن من يريد ستر ثوب بال أو وسخ لايستره بمثله ، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف ، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالى أمر بإحضار ثوب من الجنس العالى لايحصل إلا بالثمن الغالى ، فيلبس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين ، وكذلك المغفرة ، فإن المغفرة والتكفير من باب واحد فى المعنى ، وهذا هو المذكور فى قوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) وقوله (وأصلح بالهم) إشارة إلى ماذكرنا من أنه يبدلها حسنة ، فإن قيل كيف تبدل السيئة حسنة ؟ نقول معناه أنه يجزيه بعد سيئاته مايجزى المحسن على إحسانه ، فإن قال الإشكال باق وباد ، وما زال بل زاد ، فإن الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة ، لكان ذلك حثاً على السيئة ، نقول ماقلنا إنه يثيب على السيئة : وإنما قلنا إنه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة ، وذلك حيث يأتى المؤمن بسيئة ، ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدى ربه معترفاً بذنبه مستحقراً لنفسه ، فيصير أقرب إلى الرحمة من الذى لم يذنب ، ودخل على ربه مفتخراً فى نفسه ، فصار الذنب شرطاً للندم ، والثواب ليس على السيئة ، وإنما هو على الندم ، وكأن الله تعالى قال عبدى أذنب ورجع إلى ، ففعله شيء لكن ظنه بى حسن حيث لم يجد ملجأ غيرى فاتكل على فضلى ، والظن عمل القلب ، والفعل عمل البدن ، واعتبار عمل القلب أولى ، ألا ترى أن النائم والمغمى عليه لايلتفت إلى عمل بدنه ، والمفلوج الذى لاحركة له يعتبر قصد قلبه ، ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدى ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه ، والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه فى استنانه ، فهل يلتفت إلى فعل الدابة مع فعل الفارس ، بل لو كان الراكب فارغاً

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ

الفرس يؤذى بالتلويث يخاطب الفارس به ، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب ، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ، ويصدر من البدن شيء لايلتفت إليه ، بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف ، وإن كان غير مشغول فهو مؤاخذ بأفعال البدن .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ أى ذلك الإضلال والإبطال بسبب اتباعهم الباطل ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الباطل وجوه (الأول) مالا يجوز وجوده ، وذلك لأنهم اتبعوا إلها غير الله ، وإله غير الله محال الوجود ، وهو الباطل وغاية الباطل ، لأن الباطل هو المعدوم ، يقال بطل كذا ، أى عدم ، والمعدوم الذى لايجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ، ولا يجوز أن يصير حقاً موجوداً ، فهو فى غاية البطلان . فعلى هذا فالحق هو الذى لا يمكن عدمه وهو الله تعالى ، وذلك لأن الحق هو الموجود ، يقال تحقق الأمر ، أى وجد وثبت ، والموجود الذى لا يجوز عدمه هو فى غاية الثبوت (الثانى) الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) فبين أن الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار ، وعلى هذا فالحق هو الله ، لأنه تعالى جعل فى مقابلة حزب الشيطان حزب الله (الثالث) الباطل ، هو قول كبرائهم ودين آبائهم ، كما قال تعالى عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) ومقتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبى عليه السلام عن الله (الرابع) الباطل كل ما سوى الله تعالى ، لأن الباطل والهالك بمعنى واحد . و (كل شيء هالك إلا وجهه) وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل من ربهم لايلائم إلا وجهاً واحداً من أربعة أوجه ، وهو قولنا المراد من الحق هو ماأنزل الله وما قال النبى عليه السلام من الله ، فأما على قولنا الحق هو الله فكيف يصح قوله (اتبعوا الحق من ربهم) نقول على هذا من ربهم لايكون متعلقاً بالحق ، وإنما يكون تعلقه بقوله بقوله تعالى (اتبعوا) أى اتبعوا أمر ربهم ، أى من فضل الله أوهداية ربهم اتبعوا الحق ، وهو الله سبحانه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذاكان الباطل هو المعدوم الذى لايجوز وجوده ، فكيف يمكن اتباعه ؟ نقول لماكانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهى آلهة وهى تؤجرهم بذلك كانوا متبعين فى زعمهم ، ولا متبع هناك .

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى حق المؤمنين (اتبعوا الحق من ربهم) وقال فى حق الكفار (اتبعوا الباطل) من آلهتهم أو الشيطان ، نقول أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل ، وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم ، كما قال تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) وقال تعالى (وكانوا بعبادتهم كافرين) والله تعالى رضى بفعلهم وثبتهم عليه ، ويحتمل أن يقال قوله (من ربهم) عائد إلى الأمرين جميعاً ، أى من ربهم اتبع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، أى من حكم ربهم ، ومن عند ربهم .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أى مثل ضربه الله تعالى حتى يقول (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار (الثانى) كون الكافر متبعاً للباطل ، وكون المؤمن متبعاً للحق ، ويحتمل وجهين آخرين (أحدهما) على قولنا (من ربهم) أى من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ، نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الأمثال ، فإن الكل من عند الله الإضلال وغيره والاتباع وغيره (وثانيهما) هو أن الله تعالى لما بين أن الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيئاته ، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان ، نبه على أن السبب كذا أى ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل ، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل ، فإن من يؤمن ظاهراً وقلبه مملوء من الكفر ، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان اتحد فعلاهما فى الظاهر ، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل ، لابدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهراً وهو يسر الكفر ، ومن يكفر ظاهراً بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان فى الظاهر ، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه ، وهو اتباع الحق والباطل ، فكذلك اعلموا أن كل شىء اتبع فيه الحق كان مقبولا مثاباً عليه ، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردوداً معاقباً عليه فصار هذا عاماً فى الأمثال ، على أنا نقول قوله (كذلك) لا يستدعى أن يكون هناك مثل مضروب بل معناه أنه تعالى لما بين حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبين السبب فيهما ، كان ذلك غاية الإيضاح فقال (كذلك) أى مثل هذا البيان (يضرب الله للناس أمثالهم) ويبين لهم أحوالهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (أمثالهم) عائد إلى من ؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى الناس

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ

كافة قال تعالى (يضرب الله للناس أمثالهم) على أنفسهم (وثانيهما) إلى الفريقين السابقين فى الذكر معناه : يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين .

قوله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم ﴾. وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء فى قوله (فإذا لقيتم) يستدعى متعلقاً يتعلق به ويترتب عليه ، فما وجه التعلق بما قبله ؟ نقول هو من وجوه : (الأول) لما بين أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل ، ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذى حسن إعدامه (فإذا لقيتم) بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم ، فاضربوا أعناقهم (الثانى) إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين ، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان ، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب ، فاذا لقيتموهم فاقتلوهم (الثالث) أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ، ولا سيما القتل الذى هو تخريب بنيان ، فيقال رداً عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل فى سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلى والصائم ، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (فضرب) منصوب على المصدر ، أى فاضربوا ضرب الرقاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الحكمة فى اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء نقول فيه : لما بين أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع ، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغى أن يقصد أولا مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل ، فان اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الاهلاك ، فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض ، وتطهير الأرض منهم ، وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ، فإذاً ينبغى أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل ، والرقبة أظهر المقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن فى الحرب لا يتهيأ ذلك ، والرقبة ظاهرة فى الحرب ففى ضربها حز العنق وهو مستلزم الموت بخلاف سائر المواضع ، ولا سيما فى الحرب ، وفى قوله (لقيتم) ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل لأن قوله (لقيتم) يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ، ولذلك قال فى غير هذا الموضع (فاقتلوهم حيث ثقفتموهم) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا (ضرب الرقاب) بإظهار المصدر وترك الفعل ، وقال فى الأنفال (فاضربوا فوق الأعناق) بإظهار الفعل ، وترك المصدر ، فهل فيه فائدة ؟ نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة ، وهى أن المقصود أولا فى بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر

فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً

ضمناً ، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر فى الوجود ، وقد يكون المقصود أولا المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل ، مثاله من قال : إنى حلفت أن أخرج من المدينة . فيقال له : فاخرج ، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج فى نفسه غير مقصود الانتفاء ، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج أن يخرج ، فإذا قال قائل ضاق بى المكان بسبب الأعداء فيقال له مثلا الخروج يعنى الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل ، إذا عرفت هذا فنقول فى الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر فى صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب ، وههنا الأمر وارد وليس فى وقت القتال بدليل قوله تعالى (فاذا لقيتم) والمقصود بيان كون المصدر مطلوباً لتقدم المأمور على الفعل قال (فضرب الرقاب) وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهى أن الله تعالى قال هناك (واضربوا منهم كل بنان) وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل ، وههنا ليس وقت القتال فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ حتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أى (حتى إذا أثخنتموهم) لا يبقى الأمر بالقتل ، ويبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل ، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم ، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله .

قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أمر إرشاد .

قوله تعالى : ﴿ فإما مناً بعد وإما فداء ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إما) وإنما للحصر وحالهم بعد الأسر غير منحصر فى الأمرين ، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء ، نقول هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز فى سائر الأجناس ، والاسترقاق غير جائز فى أسر العرب ، فإن النبى ﷺ كان معهم فلم يذكر الاسترقاق ، وأما القتل فلأن الظاهر فى المثخن الإزمان ، ولأن القتل ذكره بقوله (فضرب الرقاب) فلم يبق إلا الامران .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مناً وفداء منصوبان لكونهما مصدرين تقديره : فإما تمنون مناً وإما تفدون فداء وتقديم المن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، والفداء يجوز أن يكون مالا يكون وأن يكون غيره من الأسرى أو شرطاً يشرط عليهم أو عليه وحده .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول ، حتى نقول إما تمنون عليهم منا أو تفدونهم فداء ، نقول لا لأن المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول

حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ

القائل : فلان يعطى ويمنع ولا يقال يعطى زيداً ويمنع عمراً لأن غرضه ذكر كونه فاعلا لا بيان المفعول ، وكذلك ههنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل .

قوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

وفى تعلق (حتى) وجهان (أحدهما) تعلقها بالقتل أى اقتلوهم حتى تضع (وثانيهما) بالمن والفداء ، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد ، وفى الأوزار وجهان (أحدهما) السلاح (والثانى) الآثام وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن كان المراد الإثم ، فكيف تضع الحرب الإثم والإثم على المحارب ؟ وكذلك السؤال فى السلاح لكنه على الأول أشد توجهاً ، فيقول تضع الحرب الأوزار لا من نفسها ، بل تضع الأوزار التى على المحاربين والسلاح الذى عليهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هل هذا كقوله تعالى (واسئل القرية) حتى يكون كأنه قال حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها ؟ نقول ذلك محتمل فى النظر الأول ، لكن إذا أمعنت فى المعنى تجد بينهما فرقاً ، وذلك لأن المقصود من قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) الحرب بالكلية بحيث لا يبقى فى الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهى باقية بمادتها كما تقول خصومتى ما انفصلت ولكنى تركتها فى هذه الأيام ، وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال حتى لا يبقى حرب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم ، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية ، وقولك لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثانى أبلغ ، فكذلك ههنا قوله تعالى (أوزارها) معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وقت وضع أوزار الحرب متى هو ؟ نقول فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذى لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ .

فى معنى ذلك وجهان (أحدهما) الأمر ذلك والمبتدأ محذوف ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم ، كما يقول القائل إن فعلت فذاك أى فذاك مقصود ومطلوب ، ثم بين أن قتالهم ليس طريقاً متعيناً بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند .

وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ .

أى ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر . فإن قيل ما التحقيق فى قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى ، وماذا يفهم من قوله (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) ؟ نقول فيه وجوه (الأول) أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين أى كما يفعل المبتلى المختبر ، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس ، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصداً إلى ظهوره ، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول فى مفهوم الابتداء ، لأن ما لا يظهر بسببه شىء أصلا لا يسمى ابتلاء ، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء ، وذلك لأن من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال إنه يمتحن ، لأن الأمر الذى يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين ، فإذا ضرب بسيفه سبعاً يقال يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده ، وأما قولنا ليظهر منه ذلك فلأن من يضرب سبعاً بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه يمتحن لأن ضربه ليس لظهور أمر متعين ، إذا علم هذا فنقول الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين ، وهو إما الطاعة أو المعصية فى العقول ليظهر ذلك يكون ممتحناً ، وإن كان عالماً به لكون عدم العلم مقارناً فينا لابتلائنا فإذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء ، فان قيل الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى ، فإذا كان الله تعالى عالماً فأية فائدة فيه ؟ نقول ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء ، فإن قول القائل : لم ابتلى كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ، ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر ؟ (وجوابه) لا يسأل عما يفعل ، ونقول حينئذ ماقاله المتقدمون إنه لظهور الامر المتعين لاله ، وبعد هذا فنقول : المبتلى لا حاجة له إلى الأمر الذى يظهر من الابتلاء ، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف فيه حتى أنه لو كان محتاجاً ، كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله (ليبلو بعضكم ببعض) إشارة إلى عدم الحاجة تقريراً لقوله (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) .

قوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾

قرىء قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم ، أما من قرأ قتلوا فلأنه لما قال (فضرب الرقاب) ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله (والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم) رداً على من زعم أن القتل فساد محرم إذ هو إفناء من هو مكرم ، فقال عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار ، ولن يضل القاتلين ، فكيف يكون القتل سيئة ، وأما من قرأ (قاتلوا) فهو أكثر فائدة وأعم تناولا ، لأنه يدخل فيه من سعى فى القتل سواء قتل أو لم يقتل ، وأما من قرأ (والذين قتلوا) على البناء للمفعول فنقول هى مناسبة لما تقدم من وجوه (أحدها) هو أنه تعالى

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾

لما قال (فضرب الرقاب) أى اقتلوا والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يقتل المقدم يمنعه من الإقدام ، فقال لاتخافوا القتل فان من يقتل فى سبيل الله له من الأجر والثواب مالا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه (وثانيها) هو أنه تعالى لما قال (ليبلو بعضكم ببعض) والمبتلى بالشىء له على كل وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال ، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع لحال المبتلين ماذا فقال إن قتل فله أن لايضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة ، وأما إن قتل فلايخفى أمره عاجلا وآجلا ، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلا لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولا (وثالثها) هو أنه تعالى لما قال (ليبلوكم) ولا يبتلى الشىء النفيس بما يخاف منه هلاكه ، فان السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشىء الصلب الذى يخاف عليه منه الانكسار ، ولكن الآدمى مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه ، فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضى إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر ، فكيف يحسن هذا الابتلاء ؟ فنقول القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم هذا إن قاتل وإن لم يقاتل ، فالموت لابد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير

وأما قوله تعالى (فلن يضل أعمالهم) قد علم معنى الإضلال ، بقى الفرق بين العبارتين فى حق الكافر والضال قال أضل وقال فى حق المؤمن الداعى لن يضل ، لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب ، وذلك حيث يسلم الكافر فالمقاتل يقول إما أن تسلم وإما أن تقتل ، فهو داع والكافر صاد وبينهما تباين وتضاد فقال فى حق الكافر أضل بصيغة الماضى ، ولم يقل يضل إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم ، وكأنه لم يوجد من أصله ، وقال فى حق المؤمن فلن يضل ، ولم يقل ماأضل إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له ، فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية الخلاف ، كأن بين الداعى والصاد غاية التباين والتضاد ، فإن قيل مامعنى الفاء فى قوله (فلن يضل) ؟ جوابه لأن فى قوله تعالى (والذين قتلوا) معنى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ سيهديهم ﴾ .

إن قرىء (قتلوا) أو (قاتلوا) فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة ، وإن قرىء (قتلوا) فهو الآخرة (سيهديهم) طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم .

وقوله ﴿ ويصلح بالهم ﴾ .

قد تقدم تفسيره فى قوله تعالى (أصلح بالهم) والماضى والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، وذلك كان واقعاً منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على

وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

الوقوع ، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل ، فكان فى اللفظ مايدل على الاستقبال ، لأن قوله تعالى (فإذا لقيتم) يدل على الاستقبال فقال (ويصلح بالهم)

قوله تعالى : ﴿ ويدخلهم الجنة ﴾ .

وكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة ويلبسهم فى الطريق خلع الكرامة ، وهو إصلاح البال (ويدخلهم الجنة) فهو على ترتيب الوقوع .

• أما قوله ﴿ عرفها لهم ﴾ . ففيه وجوه : (أحدها) هو أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه ، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون فى الأرض كل أحد يأوى إلى منزله ، ومنهم من قال الملك الموكل بأعماله يهديه (الوجه الثانى) (عرفها لهم) أى طيبها يقال طعام معرف (الوجه الثالث) قال الزمخشرى يحتمل أن يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وأرفها أى حددها ، وتحديدها فى قوله (وجنة عرضها السموات والأرض) ويحتمل أن يقال المراد هو قوله تعالى (وتلك الجنة التى أورثتموها) مشيراً إليها معرفاً لهم بأنها هى تلك وفيه وجه آخر وهو أن يقال معناه (عرفها لهم) قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته فى الجنة فيشتاق إليها (ووجه ثان) معناه (ويدخلهم الجنة) ولا حاجة إلى وصفها فانه تعالى (عرفها لهم) مراراً ووصفها (ووجه ثالث) وهو من باب تعريف الضالة فإن الله تعالى لما قال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فكأنه تعالى قال من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذى قتل سمع التعريف وبذل ماطلب منه عليها فأدخلها ، ثم إنه تعالى لما بين ماعلى القتال من الثواب والأجر وعدهم بالنصر فى الدنيا زيادة فى الحث ليزداد منهم الإقدام .

فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وفى نصر الله تعالى وجوه : (الأول) إن تنصروا دين الله وطريقه (والثانى) إن تنصروا حزب الله وفريقه (الثالث) المراد نصرة الله حقيقة ، فنقول النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ فى تحقيق علامته ، فالشيطان عدو الله يجتهد فى تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان ، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله ، فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره ، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع .

ثم قال (ينصركم) فإن قيل فعلام قلت إذا نصر المؤمنين الله تعالى ، فقد حقق ما طلبه ، فكيف

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

يحقق ماطلبه العبد وهو شيء واحد ، فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه ، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه ، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفر فتعساً لهم ﴾ .

هذا زيادة فى تقوية قلوبهم ، لأنه تعالى لما قال (ويثبت أقدامكم) جاز أن يتوهم أن الكافر أيضاً يصير ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب ، وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات ، وسببه ظاهر لأن آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة ، فهى غير صالحة لدفع ماقدره الله تعالى عليهم من الدمار ، وعند هذا لابد عن زوال القدم والعثار ، وقال فى حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء ، وقال فى حقهم بصيغة الدعاء ، وهى أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عثارهم واجب لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذ لا قدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع ، لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء .

وقوله ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين ، حيث قال فى حق قبلاهم (فلن يضل أعمالهم) وقال فى موتى الكافرين (وأضل أعمالهم) .

ثم بين الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزال الله فأحبط أعمالهم ﴾ وفيه وجوه (الأول) المراد القرآن ، ووجهه هو أن كيفية العمل الصالح لا تعلم بالعقل وإنما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به ، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم (الثانى) (كرهوا ما أنزل الله) من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم (أئنا لتاركوا آلهتنا) وقال تعالى (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) إلى أن قال (إن هذا إلا اختلاق) وقال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ووجهه أن الشرك محبط للعمل ، قال الله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله فلا بقاء له فى نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل ، لأن ماسوى وجه الله تعالى هالك محبط (الثالث) (كرهوا ما أنزل الله) من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها ، والدنيا وما فيها ومآلها باطل ، فأحبط الله أعمالهم .

وقوله ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ .

دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

فيه مناسبة للوجه الثالث يعني فينظروا إلى حالهم ويعلموا أن الدنيا فانية .

وقوله ﴿ دمر الله عليهم ﴾ أى أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد .

قوله تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الدنيا ، وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام (وثانيهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الآخرة ، فيكون المراد من تقدم كأنه يقول : دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها ، وفى العائد إليه ضمير المؤنث فى قوله (أمثالها) وجهان (أحدهما) هو المذكور وهو العاقبة (وثانيهما) هو المفهوم وهو العقوبة ، لأن التدمير كان عقوبة لهم ، فان قيل على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال ، وهو أن الأولين أهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ، ولا كذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، نقول جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء عليهم السلام عليه وإخبارهم عنه وإنذارهم به على أنهم قتلوا وأسروا بأيديهم من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام (وسؤال آخر) إذا كان الضمير عائداً إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال ؟ قلنا يجوز أن يقال المراد العذاب الذى هو مدلول العاقبة أو الألم الذى كانت العاقبة عليه .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ .

(ذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدى ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب من حيث النقل ، وأقرب من حيث العقل ، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى (وللكافرين أمثالها) إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أهلكوا بأيدى أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم وهو آلم من الهلاك بالسبب العام ، قال تعالى (ذلك) أى الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين ، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا الله فلا ناصر لهم ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلا عن أن يكون لا ناصر لهم ، فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى (لا مولى لهم) وبين قوله (مولاهم الحق) نقول المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر فحيث قال (لا مولى لهم) أراد لا ناصر لهم ، وحيث قال (مولاهم الحق) أى ربهم ومالكهم ، كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم) وقال (ربكم ورب آبائكم الأولين)

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

وفى الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن . لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين ، والكافر لامولى له بصيغة نافيه للجنس ، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ .

لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا بين حالهم فى الآخرة . وقال إنه يدخل المؤمن الجنة والكافر النار وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الأنهار فى وصف الجنة لأن الأنهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها الثمار ولأنه سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام ، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به ، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكرنا مراراً أن من فى قوله من تحتها الأنهار يحتمل أن يكون صلة معناه تجرى تحتها الأنهار ، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجرى إليها من موضع آخر ، فيقال هذا النهر منبعه من أين ؟ يقال من عين كذا من تحت جبل كذا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (والذين كفروا يتمتعون) خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضاً له التمتع بالدنيا وطيباتها ، نقول من يكون له ملك عظيم ويملك شيئاً يسيراً أيضاً لايذكر إلا بالملك العظيم ، يقال فى حق الملك العظيم صاحب الضيعة الفلانية ومن لا يملك إلا شيئاً يسيراً فلا يذكر إلا به ، فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لايلتفت إليه فى حقه والكافر ليس له إلا الدنيا ، ووجه آخر : الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ، ومن يأكل فى السجن لا يقال إنه يتمتع ، فإن قيل كيف تكون الدنيا سجناً مع مافيها من الطيبات ؟ نقول للمؤمن فى الآخرة طيبات معدة وإخوان مكرمون نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تتبين بمثال ، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة فى غاية اللذة وأنهار جارية فى غاية الصفاء ودور وغرف فى غاية الرفعة وأولاده فيها ، وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه إليهم وهم فيها ، فلما قرب منهم عوق فى أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة ، وفيها سباع وحشرات كثيرة ، فهل يكون حاله فيها كحال مسجون فى بئر مظلمة وفى بيت خراب أم لا ؟ وهل يجوز أن يقال له اترك ماهو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الأنهار أم لا ؟

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

كذلك حال المؤمن ، وأما الكافر فحاله كحال من يقدم إلى القتل فيصبر عليه أياماً فى مثل تلك الأجمة التى ذكرناها يكون فى جنة ، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ماذكرنا من المثال ، لكنه ينبيء ذا البال ، عن حقيقة الحال .

وقوله تعالى (كما تأكل الأنعام) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحاً ويقوى عليه (وثانيها) الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك (وثالثها) الأنعام تعلف لتسمن وهى غافلة عن الأمر ، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك ، وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى (والنار مثوى لهم) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى حق المؤمن (إن الله يدخل) بصيغة الوعد ، وقال فى حق الكافر (والنار مثوى لهم) بصيغة تنبيء عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعى أن يكون عن استحقاق ، فالمحسن إلى من لم يوجد منه مايوجب الإحسان كريم ، والمعذب من غير استحقاق ظالم .

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

لما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله (أفلم يسيروا فى الأرض) ولم ينفعهم مع ماتقدم من الدلائل ضرب للنبى عليه السلام مثلا تسلية له فقال (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم) وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم ، فاصبر كما صبر رسلهم ، وقوله (فلا ناصر لهم) قال الزمخشرى كيف قوله (فلا ناصر لهم) مع أن الإهلاك ماض ، وقوله (فلا ناصر لهم) للحال والاستقبال ؟ والجواب أنه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ، ويحتمل أن يقال أهلكناهم فى الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذى هم فيه ، ويحتمل أن يقال قوله (فلا ناصر لهم) عائد إلى أهل قرية محمد عليه السلام كأنه قال أهلكنا من تقدم أهل قريتك ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين .

ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ .

اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبى عليه السلام والكفار ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

النبي عليه السلام فى الدنيا محقق ، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن ، وقوله (على بينة) فرق فارق ، وقوله (من ربه) مكمل له ، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولا لادليل عليه ، فاذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر ، ويحتمل أن يقال قوله (من ربه) ليس المراد إنزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله (يهدى من يشاء) وقولنا الهداية من الله ، وكذلك قوله تعالى (كمن زين له سوء عمله) فرق فارق ، وقوله (واتبعوا أهواءهم) تكملة . وذلك أن من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه فى مقابلة من يتبين له البرهان وقبله ، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر فى الأمر ويرجع إلى الحق ، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان ، وقد يتبع هواه ولا يتدبر فى البرهان ولا يتفكر فى البيان فيكون فى غاية البعد ، فإذن حصل النبي ﷺ والمؤمن مع الكافر فى طرف التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة ، والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا (من ربه) معناه الإضافة إلى الله ، كقولنا الهداية من الله ، فقوله (اتبعوا أهواءهم) مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله (كمن زين له سوء عمله) بصيغة التوحيد محمول على لفظة من ، وقوله (واتبعوا أهواءهم) محمول على معناه فإنها للجميع والعموم ، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه فى الحس والذكر ، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه ، فظهر التعدد فحمل على المعنى .

قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ .

لما بين الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال . بين الفرق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، وكما قدم من على البينة فى الذكر على من اتبع هواه ، قدم حاله فى مآله على حال من هو بخلاف حاله ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (مثل الجنة) يستدعى أمراً يمثل به فما هو ؟ نقول فيه وجوه : (الأول) قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة ، وذلك لا يقتضى ممثلا به ، وعلى هذا ففيه احتمالان (أحدهما) أن يكون الخبر محذوفاً ويكون مثل الجنة مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة ، ثم يستأنف ويقول فيها أنهار ، وكذلك القول فى سورة الرعد يكون قوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) ابتداء بيان (والاحتمال الثانى) أن يكون فيها أنهار وقوله (تجرى من تحتها) خبراً كما يقال صف لى زيداً ، فيقول القائل : زيد أحمر قصير ، والقول الثانى : أن المثل زيادة والتقدير : الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار . (الوجه الثانى) ههنا الممثل به محذوف غير

فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى

مذكور وهو يحتمل قولين (أحدهما) قال الزجاج حيث قال (مثل الجنة) جنة تجرى (فيها أنهار) كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد فى رجل منكر لا يكون هو فى الحقيقة إلا زيداً (الثانى) من القولين هو أن يقال معناه (مثل الجنة التى وعد المتقون) مثل عجيب ، أو شىء عظيم . أو مثل ذلك ، وعلى هذا يكون قوله (فيها أنهار) كلاماً مستأنفاً محققاً لقولنا مثل عجيب (الوجه الثالث) الممثل به مذكور وهو قول الزمخشرى حيث قال (كمن هو خالد فى النار) مشبه به على طريقة الإنكار ، وحينئذ فهذا كقول القائل حركات زيد أو أخلاقه كعمرو ، وكذلك على أحد التأويلين ، إما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد فى حركاته كعمرو ، وكذلك ههنا كأنه تعالى قال : مثل الجنة ، كمن هو خالد فى النار ، وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشرى ، وعلى هذا فقوله تعالى (فيها أنهار) وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر كما يقال نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو .

قوله تعالى : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ﴾ .

اختار الأنهار من الأجناس الأربعة ، وذلك لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه ، وإما أن يشرب لأمر غير عائد إلى الطعم ، فان كان للطعم فالطعوم تسعة : المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم ألذها الحلو والدسم ، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسم الأشياء فالدهن ، لكن الدسومة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب ، فإن الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو فى الغالب ، وأما اللبن فيه الدسم الكائن فى غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولا فذكره الله تعالى ، وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر فان الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله ، وهى كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التى هى فيها وتتغير بها الدنيا فالماء يتغير يقال أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آسن وأسن اللبن إذا بقى زماناً تغير طعمه ، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب . والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيراً ، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذى يشرب لا للطعم وهو عام الشرب ، وقرن به اللبن الذى يشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن ، ثم ذكر الخمر الذى يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب ، وقرن به العسل الذى يشرب للطعم وهو قليل الشرب ، فإن قيل العسل

وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

لا يشرب ، نقول شراب الجلاب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان ، ألا ترى أن السكنجبين من « سركه وانكبين » وهو الخل والعسل بالفارسية كما أن استخراجه كان أولا من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا فى زمان متأخر ، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الخمر (لذة للشاربين) ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر ، فقال (لذة للشاربين) بأسرهم ولأن الخمر كريهة الطعم فقال (لذة) أى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم ، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس ، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك ، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعماً واحداً وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعميم حاجة ، وقوله (لذة) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ وأطعمة لذة ولذيذة (وثانيهما) أن يكون ذلك وصفاً بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم هو حلم كله وللعاقل كله :

ثم قال تعالى ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ .

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول ، ولما كان فى الجنة الأكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم ، وهذا كقوله تعالى فى سورة الرعد (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها) حيث أشار إلى المأكول والمشروب ، وههنا لطيفة وهى أنه تعالى قال فيها (وظلها) ولم يقل ههنا ذلك ، نقول قال ههنا (ومغفرة) والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الأمير ، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المتقى لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة ؟ فنقول (الجواب) عنه من وجهين : (الأول) ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها ، بل يكون عطفاً على قوله (لهم) كأنه تعالى قال لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها (والثانى) هو أن يكون المعنى لهم فيها مغفرة أى رفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن الثمار فيها عليها حساب أو عقاب ، ووجه آخر وهو أن الأكل فى الدنيا لا يخلو عن استتباع قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة إلى تبرز ، فقال (لهم فيها من كل الثمرات ومغفرة) لا قبيح على الأكل بل مستور القبائح مغفور ، وهذا استفدته من المعلمين فى بلادنا فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون

﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره : يامعلم غفرالله لك ، فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن فى الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم ، فقلت فى نفسى معناه هو أن الله تعالى فى الجنة غفر لمن أكل ، وأما فى الدنيا ، فلأن للأكل توابع ولوازم لابد منها فيفهم من قولهم حاجتهم .

قوله تعالى : ﴿ كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ على قول من قال (مثل الجنة) معناه وصف الجنة فقوله (كمن هو) بماذا يتعلق ؟ نقول قوله (لهم فيها من كل الثمرات) يتضمن كونهم فيها فكأنه قال هو فيها كمن هو خالد فى النار ، فالمشبه يكون محذوفا مدلولا عليه بما سبق ، ويحتمل أن يقال ماقيل فى تقرير قول الزمخشرى أن المراد هذه الجنة التى مثلها ما ذكرنا كمقام من هو خالد فى النار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) وهو خالد فى النار فهل هو صحيح أم لا ؟ نقول لنا نظر إلى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر إلى المعنى لايصح إلا بأن يعود إلى ماذكرناه ، أما التصحيح فبحذف كمن فى المرة الثانية أو جعله بدلا عن المتقدم أو بإضمار عاطف يعطف (كمن هو خالد) على (كمن زين له سوء عمله) أو (كمن هو خالد فى النار) ، وأما التعسف فبين نظراً إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به ، وأما طريقة البدل ففاسدة وإلا لكان الاعتماد على الثانى فيكون كأنه قال : أفمن كان على بينة كمن هو خالد ؟ وهو سمج فى التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك ، والقول فى إضمار العاطف كذلك لأن المعطوف أيضاً يصير مستقلا فى التشبيه ، اللهم إلا أن يقال يقابل المجموع بالمجموع كأنه يقول : أفمن كان على بينة من ربه ،وهو فى الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار ، كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار ، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه ، وبين من زين له سوء عمله ، وبين من فى الجنة وبين من هو خالد فى النار ، وقد ذكرناه فلاحاجة إلى خلط الآية بالآية ، وكيف وعلى ماقاله تقع المقابلة بين من هو فى النار وسقوا ماء حميما وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما ، بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الأخر فإن المقابلة بين الجنة التى فيها الأنهار وبين النار التى فيها الماء الحميم وذلك لتشبيه إنكار مناسب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (كمن هو خالد) حملا على اللفظ الواحد وقال (وسقوا ماء حميما) على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل (كمن زين له سوء عمله) على التوحيد والإفراد (واتبعوا أهواءهم) على الجمع فما الوجه فيه ؟ نقول المسند إلى من إذا كان متصلا فرعاية اللفظ أولى لأنه هو المسموع ، وإذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولا ، لأن اللفظ لايبقى فى السمع ، والمعنى يبقى فى ذهن

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا

السامع فالحمل فى الثانى على المعنى أولى وحمل الاول على اللفظ أولى ، فان قيل كيف قال فى سائر المواضع (من آمن وعمل صالحاً) و (من تاب وأصلح) ؟ نقول إذا كان المعطوف مفرداً أو شبيها بالمعطوف عليه فى المعنى فالاولى أن يختلفا كما ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد وكذلك لو قال : كمن هو خالد فى النار ومعذب فيها لأن المشابهة تنافى المخالفة ، وأما إذا لم يكن كذلك كما فى هذا الموضع ، فإن قوله (سقوا ماء) جملة غير مشابهة لقوله (هو خالد) وقوله تعالى (وسقوا ماء حميماً) بيان لمخالفتهم فى سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن ، ولهم ماء حميم ، فإن قيل المشابهه الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت ، وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله (على بينة) فى مقابلة (زين له سوء عمله) و (من ربه) فى مقابلة قوله (واتبعوا أهواءهم) والجنـــة فى مقابلة النار فى قوله (خالد فى النهار) والمـاء الحميم فى مقابلة الأنهار ، فأين مايقـابل قوله (ولهم فيهـا من كل الثمرات ومغفرة) فنقول تقطع الأمعـاء فى مقابلة مغفرة لأنا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التى فى الجنة هى تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها ، كأنه قال : للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر لايجتمع فى جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة ، وللكافر ماء حميم فى أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم ، وأما الثمار فلم يذكر مقابلها ، لأن فى الجنة زيادة مذكوره لحققها بذكر أمر زايد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة ، وهى الحدة التى تكون فى السموم المدوفه[1] ، وإلا فمجرد الحرارة لايقطع ، فإن قيل قوله تعالى (فقطع) بالفاء يقتضى أن يكون القطع بمـا ذكر ، نقول نعم ، لكنه لايقتضى أن يقال : يقطع ، لأنه ماء حميم لحسب ، بل ماء حميم مخصوص يقطع .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ﴾ .

لمـا بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار ، وقوله (ومنهم) يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الناس ، كما قال تعالى فى سورة البقرة (ومن الناس من يقول آمنا بالله) بعد ذكر الكفار ، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى أهل مكة ، لأن ذكرهم سبق فى قوله تعالى (هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم) ويحتمل أن يكون راجعاً إلى معنى قوله (كمن هو خالد فى النار

(١) (المدونة) بالنون وكلاها تصحيف ومعنى المدوفة المعدة للشرب .

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

وسقوا ماء حميما) يعنى ومن الخالدين فى النار قوم يستمعون إليك ، وقوله (حتى إذا خرجوا من عندك) على ماذكرنا حمل على المعنى الذى هو الجمع ، ويستمع حمل على اللفظ ، وقد سبق التحقيق فيه ، وقوله (حتى) للعطف فى قول المفسرين ، وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءاً من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه ، كقول القائل : أكرمنى الناس حتى الملك ، وجاء الحاج حتى المشاة ، وفى الجملة ينبغى أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ، ولا يشترط فى العطف بالواو ذلك ، فيجوز أن تقول فى الواو : جاء الحاج وما علمت ، ولا يجوز مثل ذلك فى حتى ، إذا علمت هذا فوجه التعلق ههنا هو أن قوله (حتى إذا خرجوا من عندك) يفيد معنى زائداً فى الاستماع كأنه يقول : يستمعون استماعاً بالغاً جيداً ، لأنهم يستمعون وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد فى التعلم الطالب للتفهم ، فإن قلت فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم ، وهو ذكرهم فى معرض الذم ، نقول يتميز بما بعده وهو أحد أمرين : إما كونهم بذلك مستهزئين ، كالذكى يقول للبليد : أعد كلامك حتى أفهمه ، ويرى فى نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع ، وكل أحد يعلم أنه مستهزىء غير مستفيد ولا مستعيد ، وإما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون ويستعيدون ، ويناسب هذا الثانى قوله تعالى (كذلك يطبع الله على قلوب المجرمين) ، والأول يؤكده قوله تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) والثانى يؤكده قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وقوله (آنفاً) قال بعض المفسرين : معناه الساعة ، ومنه الاستئناف وهو الابتداء ، فعلى هذا فالأولى أن يقال يقولون ماذا قال آنفا بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء ، كما يقول المستعيد للمعيد : أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتنى شىء منه .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ .

أى تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم ، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده .

قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدى بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ، ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدى يفسر ويعيد ، وفيه فائدتان (إحداهما) ماذكرنا من بيان التباين بين الفريقين (وثانيهما) قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة ، فإنه لو قال مافهمته لغموضه وكونه معمى ، يرد عليه ويقول ليس

كذلك ، فان المهتدى فهم واستنبط لوازمه وتوابعه ، فذلك لعماء القلوب ، لا لخفاء المطلوب .
وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفاعل للزيادة فى قوله (زادهم) ؟ نقول فيه وجوه (الأول) المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله (ومنهم من يستمع إليك) فإنه يدل على مسموع ، والمقصود بيان التباين بين الفريقين ، فكأنه قال : هم لم يفهموه ، وهؤلاء فهموه (والثانى) أن الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى ، والمهتدى زاده هدى (والثالث) استهزاء المنافق زاد المهتدى هدى ، ووجهه أنه تعالى لما قال (واتبعوا أهواءهم) قال (والذين اهتدوا زادهم) اتباعهم الهدى هدى ، فإنهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مامعنى قوله (وآتاهم تقواهم) ؟ نقول فيه وجوه منقولة ومستنبطة ، أما المنقولة فنقول : قيل فيه إن المراد آتاهم ثواب تقواهم ، وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار ، يعنى بين لهم التقوى ، وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا . وأما المستنبط فنقول : يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بياناً لغاية الخلاف بين المنافق ، فإنه استمع ولم يفهمه ، واستعاد ولم يعلمه ، والمهتدى فإنه علمه وبينه لغيره ، ويدل عليه قوله تعالى (زادهم هدى) ولم يقل اهتداء ، والهدى مصدر من هدى ، قال الله تعالى (فبهداهم اقتده) أى خذ بما هدوا ، واهتد كما هدوا ، وعلى هذا فقوله تعالى (وآتاهم تقواهم) معناه جنبهم عن القول فى القرآن بغير برهان ، وحملهم على الاتقاء من التفسير بالرأى ، وعلى هذا فقوله (زادهم هدى) معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين ويحتمل أن يقال قوله (زادهم هدى) إشارة إلى العلم (وآتاهم تقواهم) إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه ، وهو مستنبط من قوله تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) .

(المعنى الثالث) يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره ، وتحقيقه هو أنه لما قال (زادهم هدى) أفاد أنهم ازداد علمهم ، وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فقال آتاهم خشيتهم التى يفيدها العلم .

(والمعنى الرابع) تقواهم من يوم القيامة كما قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) ويدل عليه قوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) كأن ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه .

(المعنى الخامس) آتاهم تقواهم ، التقوى التى تليق بالمؤمن ، وهى التقوى التى لا يخاف معها لومة لائم .

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

ثم قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) وكذلك قوله تعالى (ياأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين ، وهذا يحقق ذلك ، من حيث إن المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان ، المؤمنون والكافرون فكان يتردد بينهما ويرضى الفريقين ويسخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهتدى بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك واتق الله لاغير ، واتق ذلك غير الله .

قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ .

يعنى الكافرون والمنافقون لاينظرون إلا الساعة ، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير لاينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة ، وقرىء (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم) على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم ، يدل عليه قوله تعالى (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ، وقد ذكرنا أن القيامة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب .

وقوله (فقد جاء أشراطها) يحتمل وجهين (أحدهما) لبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو أن الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنو ولم يؤمنوا فهم فى لجة الفساد وغاية العناد (ثانيهما) يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال (فهل ينظرون) فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلا قال متى تكون الساعة ؟ فقد جاء أشراطها كقوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) والأشراط العلامات ، قال المفسرون هى مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يقال معنى الأشراط البينات الموضحة لجواز الحشر ، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض ، كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) والأول هو التفسير .

قوله تعالى : ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ يعنى لا تنفعهم الذكرى إذ لاتقبل التوبة ولا يحسب الإيمان ، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم ، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى (هذا يومكم الذى كنتم توعدون ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) فيذكرون به للتحسر ، وكذلك قوله تعالى (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ ولبيان المناسبة وجوه (الأول) هو أنه تعالى لما قال (فقد جاء أشراطها) قال (فاعلم أنه لا إله إلا الله) يأتي بالساعة ، كما قال تعالى (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) ، (وثانيها) (فقد جاء أشراطها) وهي آتية فكأن قائلا قال متى هذا ؟ فقال (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار ، وكن في أي وقت مستعداً للقائها ويناسبه قوله تعالى (واستغفر لذنبك) ، (الثالث) (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ينفعك ، فان قيل النبي عليه الصلاة والسلام كان عالماً بذلك فما معنى الأمر ، نقول عنه من وجهين (أحدهما) فاثبت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام : اجلس أي لا تقم (ثانيهما) الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلامة ، والمراد قومه والضمير في أنه للشأن ، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء ، يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور ، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلى قلبه وقال أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيراً فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم ، فقد حصل لك الوصفان ، فاثبت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم ، وقوله تعالى (واستغفر لذنبك) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لأفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر . وقال بعض الناس (لذنبك) أي لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أي الذين ليسوا منك بأهل بيت (وثانيهما) المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك (وثالثها) وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيء ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران ، والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات ، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره ، فأما مع الله وحده ، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله ، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة وحالكم في الليل والنهار .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنو لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ﴾ .

لما بين الله حال المنافق والكافر والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلميـــة من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله (ومنهم من يستمع إليك) وقوله (والذين اهتد زادهم هدى) بين حالهم فى الآيات العملية ، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشىء من العبادة خوفاً من أن لايؤهل لهـا ، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ، ليعلم تباين الفريقين فى العلم والعمل ، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم (لولا نزلت سورة) المراد منـه سورة فيها تكليف بمحن المؤمن والمنافق .

ثم إنه تعـالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف وقوله (سورة محكمة) فيهـا وجوه : (أحدها) سورة لم تنسخ (ثانيها) سورة فيهـا ألفاظ أريدت حقائقها بخلاف قوله (الرحمن على العرش استوى) وقوله فى (جنب الله) فإن قوله تعالى (فضرب الرقاب) أراد القتل وهو أبلغ من قوله (اقتلوهم) وقوله (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال وعلى الوجهين فقوله (محكمة) فيها فائدة زائدة من حيث إنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه أو يقولوا هذه آية ، وقد نسخت فلا نقاتل ، وقوله (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) أى المنافقين (ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) لأن عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة ، فإنهم قبل القتال كانو يترددون إلى القبيلتين وعند الامر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك (فأولى لهم) دعاء كقول القائل فويل لهم ، ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت كأن الله تعالى لمـا قال (نظر المغشى عليه من الموت) قال فالموت أولى لهم ، لأن الحياة التى لا فى طاعة الله ورسوله الموت خير منهـا ، وقال الواحدى يجوز أن يكون المعنى فأولى لهم طاعة أى الطاعة أولى لهم .

قوله تعالى : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ .

كلام مستأنف محذوف الخبر تقـديره خير لهم أى أحسن وأمثـل ، لا يقال طاعة نكرة لا تصلح

فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾

للابتداء ، لأنا نقول هي موصوفة يدل عليه قوله (وقول معروف) فإنه موصوف فكأنه تعالى قال (طاعة) مخلصة (وقول معروف) خير ، وقيل معناه قالوا (طاعة وقول معروف) أي قولهم أمرنا (طاعة وقول معروف) ويدل عليه قراءة أبي (يقولون طاعة وقول معروف) .

وقوله ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

جوابه محذوف تقديره (فإذا عزم الأمر) خالفوا وتخلفوا ، وهو مناسب لمعنى قراءة أبي كأنه يقول في أول الأمر قالوا سمعنا وطاعة ، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم ، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه : فإذا عزم صاحب الأمر . هذا قول الزمخشري ، ويحتمل أن يقال هو مجاز كقولنا جاء الأمر وولى فإن الأمر في الأول يتوقع أن لا يقع وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال (عزم) والوجهان متقاربان ، وقوله تعالى (فلو صدقوا) فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا (لكان خيراً لهم) وعلى قولنا (طاعة وقول معروف) خير لهم وأحسن ، فمعناه (لو صدقوا) في إيمانهم واتباعهم الرسول (لكان خيراً لهم) .

قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا ؟ فقال تعالى (إن توليتم) لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم ، أليس قتلكم البنات إفساداً وقطعاً للرحم ؟ فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في استعمال عسى ثلاثة مذاهب (أحدها) الإتيان بها على صورة فعل ماض معه فاعل تقول عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا (والثاني) أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول تقول عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساي وعسانا . (والثالث) الإتيان بها من غير أن يقرن بها شيء تقول عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه ، وذلك لأن عسى من الأفعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أولى من اقتران المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات في مثل قول القائل نصرت وجوز في مثل قولهم نصرك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازماً أو متعدياً ولا كذلك المفعول به ، فعسيت وعساك كعصيت وعصاك في اقتران الفاعل بالفعل

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

والمفعول به ، وأما قول من قال عسى أنت تقوم وعسى أن أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذى فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار (عسيتم إن توليتم) لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ عسى للتوقيع والله تعالى عالم بكل شىء فنقول فيه ما قلنا فى لعل ، وفى قوله (لنبلوهم) إن بعض الناس قال يفعل بكم فعل المترجى والمبتلى والمتوقع ، وقال آخرون كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا محمول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكناً فى نفسه فالنظر إليه غير مستلزم لأمر ، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى فيكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجى سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء أن لم يكن يعلم ، مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فان حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى لايخرج عن التوقع ، غاية ما فى الباب أن فى الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع ، وليس كذلك بل المتوقع هو المنتظر لأمر ليس بواجب الوقوع نظراً ذلك الأمر لحسب سواء كان له به علم أولم يكن وقوله (إن توليتم) فيه وجهان : (أحدهما) أنه من الولاية يعنى إن أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الأرحام (وثانيهما) هو من التولى الذى هو الإعراض وهذا مناسب لما ذكرنا ، أى كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الإفساد وقطع الأرحام لكون الكفار أقاربنا فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شىء كما كان عادة العرب (الأول) يؤكده قراءة على عليه السلام توليتم ، أى إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم معهم وقطعتم أرحامكم ، والنبى عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام ، فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون فى الضلال .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ .

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين وأعماهم فلايتبعون الصراط المستقيم ، وفيه ترتيب حسن ، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام العلمى ولم يفهموه فهم بالنسبة إليه صم أصمهم الله وعند الأمر بالعمل تركوه وعللوا بكونه إفساداً وقطعاً للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهى عنه فلم يروا حالهم عليه وتركوا اتباع النبى الذى يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فهم عمى أعماهم الله ، وفيه لطيفة : وهى أن الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم ، وقال (وأعمى

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

أبصارهم) ولم يقل أعماهم ، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام ، لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى، كما يؤذى الصوت القوى فقال (أصمهم) من غير ذكر الأذن ، وقال (أعمى أبصارهم) مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدراً لما جمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها فى الإصمام ، والعين لها مدخل فى الرؤية بل هى الكل ، ويدل عليه أن الآفة فى غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقراً ، كما قال تعالى (وفى آذاننا وقر) وقال (كأن فى أذنيه وقراً) والوقر دون الصم وكذلك الطرش .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ولنذكر تفسيرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما قال الله تعالى (فأصمهم وأعمى أبصارهم) كيف يمكنهم التدبر فى القرآن قال تعالى (أفلا يتدبرون) وهو كقول القائل للأعمى أبصر وللأصم اسمع ؟ فنقول (الجواب) عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض (الأول) تكليفه ما لا يطاق جائز والله أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن ، فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر (الثانى) أن قوله (أفلا يتدبرون) المراد منه الناس (الثالث) أن نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة ، فانه تعالى قال(أولئك الذين لعنهم الله) أى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة (فأصمهم) لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام فإذن هم بين أمرين ، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه ، لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق ، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف ، وأما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة ، تقديره (أفلا يتدبرون القرآن) لكونهم ملعونين مبعودين ، أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون ، وعلى هذا لا نحتاج أن نقول أم بمعنى بل ، بل هى على حقيقتها للاستفهام واقعة فى وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر ، وأم دخلت على القلوب التى فى وسط الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (على قلوب) على التنكير ما الفائدة فيه ؟ نقول قال الزمخشرى يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة (الثانى) أن يكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لأن النكرة لا تعم ، تقول جاءنى رجال فيفهم البعض وجاءنى الرجال فيفهم الكل ، ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذى فى القلوب ، وذلك لأن القلب إذا كان عارفاً كان

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

معروفاً لأن القلب خلق للمعرفة ، فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف ، وهذا كما يقول القائل فى الإنسان المؤذى : هذا ليس بإنسان هذا سبع ، ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر . إذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة ، واللام لتعريف الجنس أو للعهد ، ولم يمكن إرادة الجنس إذ ليس على قلب قفل ، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغى أن يقال له قلب ، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أقفالها وهى لعدم عود فائدة إليهم ، كأنها ليست لهم . فإن قيل فقد قال (ختم الله على قلوبهم) وقال (فويل للقاسية قلوبهم) فنقول الأقفال أبلغ من الختم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأساً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (أقفالها) بالإضافة ولم يقل أقفال كما قال (قلوب) لأن الأقفال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها ، وفى الجملة لم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها ، ونقول أراد به أقفالا مخصوصة هى أقفال الكفر والعناد .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ .

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق فى التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثه وارتدوا ، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن ، وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق (الشيطان سول لهم) سهل لهم (وأملى لهم) يعنى قالوا نعيش أياماً ثم نؤمن به ، وقرىء (وأملى لهم) فإن قيل الإملاء والإمهال وحد الآجال لا يكون إلا من الله ، فكيف يصح قراءة من قرأ (وأملى لهم) فان المملى حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) جاز أن يكون المراد (وأملى لهم) الله فيقف على (سول لهم) (وثانيها) هو أن المسول أيضاً ليس هو الشيطان ، وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك ، فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم فى آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم فى آخر الأمر تؤمنون ، وقرىء (وأملى لهم) بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾

قال بعض المفسرين ذلك إشارة إلى الإملاء ، أى ذلك الإملاء بسبب أنهم (قالوا للذين كرهوا) وهو اختيار الواحدى ، وقال بعضهم (ذلك) إشارة إلى التسويل ، ويحتمل أن يقال ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا (سنطيعكم) وذلك لأنا نبين أن قوله (سنطيعكم فى بعض الأمر) هو أنهم قالوا : نوافقكم على أن محمداً ليس برسل ، وإنما هو كاذب ، ولكن لا نوافقكم فى إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام ، ومن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، وإن آمن بغيره . لا بل من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر ، لأن الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز ، أخبر عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهى جائزة فاذا لم يصدق الله فى شىء لا ينفى الكذب بقول الله فى غيره ، فلا يكون مصدقاً موقناً بالحشر ، ولا برسالة أحد من الأنبياء ، لأن طريق معرفتهم واحد ، والمراد من الذين (كرهوا ما نزل الله) هم المشركون والمنافقون ، وقيل المراد اليهود ، فإن أهل مكة قالوا لهم : نوافقكم فى إخراج محمد وقتله وقتال أصحابه ، والأول أصح ، لأن قوله (كرهوا ما نزل الله) لو كان مسنداً إلى أهل الكتاب لكان مخصوصاً ببعض ما أنزل الله ، وإن قلنا بأنه مسند إلى المشركين يكون عاماً ، لأنهم (كرهوا ما نزل الله) وكذبوا الرسل بأسرهم ، وأنكروا الرسالة رأساً ، وقوله (سنطيعكم فى بعض الأمر) يعنى فيما يتعلق بمحمد من الإيمان به فلا نؤمن ، والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه ، وأما الإشراك بالله ، واتخاذ الأنداد له من الأصنام ، وإنكار الحشر والنبوة فلا ، وقوله (والله يعلم إسرارهم) قال أكثرهم : المراد منه هو أنهم قالوا ذلك سراً ، فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه الصلاة والسلام ، والأظهر أن يقال (والله يعلم إسرارهم) وهو ما فى قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فإنهم كانوا مكابرين معاندين ، وكانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، وقرىء (إسرارهم) بكسر الهمزة على المصدر ، وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة ، فإنهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون ، فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار (سنطيعكم فى بعض الأمر) وكانوا يسرون أنهم إن غلبوا انقلبوا ، كما قال الله تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) وقال تعالى (فإذا جاء الخوف سلقوكم بألسنة حداد) .

قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

اعلم أنه لما قال الله تعالى (والله يعلم إسرارهم) قال هب أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفياً وقت وفاتهم ، أو نقول كأنه تعالى قال (والله يعلم إسرارهم) وهب أنهم

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ

يختارون القتال لما فيه الضراب والطعان ، مع أنه مفيد على الوجهين جميعاً ، إن غلبوا فالمال فى الحال والثواب فى المآل ، وإن غلبوا فالشهادة والسعادة ، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم ، وعلى هذا فيه لطيفة ، وهى أن القتال فى الحال إن أقدم المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه ، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم ، فان فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه . وإن لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر ، فوجهه وظهره مضروب مطعون ، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ وفيه لطيفة ، وهى أن الله تعالى ذكر أمرين : ضرب الوجه ، وضرب الأدبار ، وذكر بعدهما أمرين آخرين : اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه ، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال (يضربون وجوههم) حيث أقبلوا على سخط الله ، فان المتسع للشىء متوجه إليه ، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله ، فإن الكاره للشىء يتولى عنه ، وما أسخط الله يحتمل وجوهاً (الأول) إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الإقرار به والإسلام (الثانى) الكفر هو ما أسخط الله والإيمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضاه لكم) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) إلى أن قال (رضى الله عنهم ورضوا عنه) (الثالث) ما أسخط الله تسويل الشيطان ، ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن ، فان قيل هم ما كانوا يكرهون رضوان الله ، بل كانوا يقولون : إن ما نحن عليه فيه رضوان الله ، ولا نطلب إلا رضاء الله ، وكيف لا والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون : إنا نطلب رضاء الله ، كما قالوا (ليقربونا إلى الله زلفى) وقالوا (ليشفعوا لنا) فنقول معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى .

(وفيه لطيفة) وهى أن الله تعالى قال (ما أسخط الله) ولم يقل : ما أرضى الله وذلك لأن رحمة الله سابقة ، فله رحمة ثابتة وهى منشأ الرضوان ، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب ، فقال (رضوانه) لأنه وصف ثابت لله سابق ، ولم يقل سخط الله ، بل (ما أسخط الله) إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ، ولهذا المعنى قال فى اللعان فى حق المرأة (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) يقال (غضب الله) مضافاً لأن لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه ، وقبله لم يكن لله غضب ، و (رضوان الله) أمر يكون منه الفعل ، وغضب الله أمر يكون من فعله ، ولنضرب له مثالا : الكريم الذى رسخ الكرم فى نفسه يحمله الكرم على الأفعال الحسنة ، فإذا كثر من المسىء الإساءة فغضبه لا لأمر يعود إليه ، بل غضبه عليه يكون لإصلاح

فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

حاله ، وزجراً لأمثاله عن مثل فعاله ، فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة ، لكن فلاناً أغضبه وظهر منه الغضب ، فيجعل الغضب ظاهراً من الفعل ، والفعل الحسن ظاهراً من الكرم ، فالغضب فى الكريم بعد فعل ، والفعل منه بعد كرم ، ومن هذا يعرف لطف قوله (ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) .

قوله تعالى : ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ حيث لم يطلبوا ارضاء الله ، وإنما طلبوا ارضاء الشيطان والاصنام .

قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ .

هذا إشارة إلى المنافقين و (أم) تستدعى جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام ، لأن كلمة (أم) إذا كانت متصلة استفهامية تستدعى سبق جملة أخرى استفهامية ، يقال أزيد فى الدار أم عمرو ، وإذا كانت منقطعة لا تستدعى ذلك ، يقال إن هذا لزيد أم عمرو ، وكما يقال بل عمرو ، والمفسرون على أنها منقطعة ، ويحتمل أن يقال إنها استفهامية ، والسابق مفهوم من قوله تعالى (والله يعلم إسرارهم) فكأنه تعالى قال : أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكل قاصر ، وإنما يعلمها ويظهرها ، ويؤيد هذا أن المنقطعة لا تكاد تقع فى صدر الكلام فلا يقال ابتداء ، بل جاء زيد ، ولا أم جاء عمرو ، والإخراج بمعنى الإظهار فإنه إبراز ، والأضغان هى الحقود والأمراض ، واحدها ضغن .

قوله تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾

لما كان مفهوم قوله (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) أن الله يظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم كأن قائلا قال فلم لم يظهر فقال أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم ، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفاً منهم (ولو نشاء لأريناكهم) أى لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف ، وقوله (فلتعرفتهم) لزيادة فائدة ، وهى أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة ، يقال عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال ههنا (فلعرفتهم) يعنى عرفناهم تعريفاً تعرفهم به ، إشارة إلى قوة التعريف ، واللام فى قوله (فلعرفتهم) هى التى تقع فى جزاء لو كما فى قوله (لأريناكهم) أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة كأنه قال : ولو نشاء لعرفتهم ، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف ، أى لو نشاء لعرفناك تعريفاً معه المعرفة

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

لا بعده ، وأما اللام فى قوله تعالى (ولتعرفنهم) جواب لقسم محذوف كأنه قال ولتعرفنهم والله ، وقوله (فى لحن القول) فيه وجوه (أحدها) فى معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم أى لتعرفنهم فى معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حين مجىء النصر إنا كنا معكم ، وقولهم (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن) وقولهم (إن بيوتنا عورة) وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عز وجل أى لتعرفنهم فى معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا) وقوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى غير ذلك ، (وثانيها) فى ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا ، فأمالوا كلامهم حيث قالوا (نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقالوا (إن بيوتنا عورة وما هى بعورة ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) إلى غير ذلك (وثالثها) فى لحن القول أى فى الوجه الخفى من القول الذى يفهمه النبى عليه السلام ولا يفهمه غيره ، وهذا يحتمل أمرين أيضاً والنبى عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له فى إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم ، وأما قوله (بسيماهم) فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى (ولو نشاء لمسخناهم) وروى أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق ، وقوله تعالى (والله يعلم أعمالكم)وعد للمؤمنين ، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق ، فان المنافق كان له قول بلا عمل ، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به ، وإنما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وقوله (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون فى السيئات مستغفرين مشفقين ، والمنافق كان يتكلم فى الصالحات كقوله (إنا معكم) (قالت الأعراب آمنا) ، (ومن الناس من يقول آمنا) ويعمل السيء فقال تعالى الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع .

قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾ .

أى لنأمرنكم بما لا يكون متعيناً للوقوع ، بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر ، وقوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) أى نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل فى علم الشهادة فانه تعالى قد علمه علم الغيب وقد ذكرنا ما هو التحقيق فى الابتلاء ، وفى قوله (حتى نعلم) وقوله (المجاهدين) أى المقدمين على الجهاد (والصابرين) أى الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله (ونبلوا أخباركم) يحتمل وجوهاً (أحدها) قوله (آمنا) لأن المنافق وجد منه هذا الخبر

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾

والمؤمن وجد منه ذلك أيضاً ، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب ، كما قال تعالى (أولئك هم الصادقون) ، (وثانيها) إخبارهم من عدم التولية فى قوله (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) إلى غير ذلك ، فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه (فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص) والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة (وثالثها) المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) ، (لأغلبن أنا ورسلى ، وإن جندنا لهم الغالبون) وللمنافق أخبار أراجيف كما قال تعالى فى حقهم (والمرجفون فى المدينة) فعند تحقق الإيجاف ، يتبين الصدق من الإرجاف .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) هم أهل الكتاب قريظة والنضير (والثانى) كفار قريش يدل على الأول قوله تعالى (من بعد ماتبين لهم الهدى) قيل أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام ، وقوله (لن يضروا الله شيئاً) تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك ، بل الشقاق مع الله فإن محمد رسول الله ماعليه إلا البلاغ فإن ضروا يضروا الرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ، وقوله (وسيحبط أعمالهم) قد علم معناه . فإن قيل قد تقدم فى أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط فى المستقبل ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد من قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) فى أول السورة المشركون ، ومن أول الأمر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة ، والمراد من الذين كفروا ههنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد ، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلا ولا كان معترفاً بالحشر (الثانى) هو أن المراد بالأعمال ههنا مكايدهم فى القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين ، والمراد بالأعمال فى أول السورة هو ماظنوه حسنة .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ .
العطف ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

الله تحمل على طاعة الرسول ، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم ، كأنه تعالى قال : يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير ، وقوله (ولا تبطلوا أعمالكم) يحتمل وجوهاً (أحدها) دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم ، قال تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) (الوجه الثانى) (لا تبطلوا أعمالكم) بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) إلى أن قال (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) (الثالث) (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) كما قال تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم) وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لأجل قلبك ، ولولا رضاك به لما فعلت ، وهو مناف للاخلاص ، والله لا يقبل إلا العمل الخالص .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ .

بين أن الله لا يغفر الشرك وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم بفضله ، وإن لم يغفر لهم بعملهم .

قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ .

لما بين أن عمل الكافر الذى له صورة الحسنات محبط ، وذنبه الذى هو أقبح السيئات غير مغفور ، بين أن لا حرمة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله (وأطيعوا الرسول) وأمر بالقتال بقوله (فلا تهنوا) أى لا تضعفوا بعد ما وجد السبب فى الجد فى الأمر والاجتهاد فى الجهاد فقالة (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) وفى الآيات ترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يقتضى السعى فى القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة ، فذلك يقتضى أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون ، ثم إن بعد المقتضى قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب ، والمانع من القتال إما أخروى وإما دنيوى ، فذكر الأخروى وهو أن الكافر لا حرمة له فى الدنيا والآخرة ، لأنه لا عمل له فى الدنيا ولا مغفرة له فى الآخرة ، فإذا وجد السبب ولم يوجد المانع ينبغى أن يتحقق المسبب ، ولم يقدم المانع الدنيوى على قوله (فلا تهنوا) إشارة إلى أن الأمور الدنيوية لا ينبغى أن تكون

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾

مانعة من الإتيان ، فلاتهنوا فإن لكم النصر ، أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة .

ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوى مع أنه لاينبغى أن يكون مانعاً ليس بموجود أيضاً حيث ﴿أنتم الأعلون﴾ والأعلون والمصطفون فى الجمع حالة الرفع معلوم الأصل ، ومعلوم أن الأمر كيف آل إلى هذه الصيغة فى التصريف ، وذلك لأن أصله فى الجمع الموافق أعليون ومصطفيون فسكنت الياء لكونها حرف علة فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه والتحريك كان يوقع فى المحذور الذى اجتنب منه فوجب الحذف ، والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء و بقى أعلون ، وبهذا الدليل صار فى الجر أعلين ومصطفين ، وقوله تعالى (والله معكم) هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه ، وذلك لأنه تعالى لما قال (وأنتم الأعلون) كان ذلك سبب الافتخار فقال (والله معكم) يعنى ليس ذلك من أنفسكم بل من الله ، أو نقول لما قال (وأنتم الأعلون) فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم وكان يقع فى نفس بعضهم أنهم كيف يكون لهم الغلبة فقال إن الله معكم لا يبقى لكم شك ولا ارتياب فى أن الغلبة لكم وهذا كقوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) وقوله (وإن جندنا لهم الغالبون) وقوله (ولن يتركم أعمالكم) وعد آخر وذلك لأن الله لما قال إن الله معكم ، كان فيه أن النصرة بالله لا بكم فكان القائل يقول لم يصدر منى عمل له اعتبار فلا أستحق تعظيما ، فقال هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ومنكم فكأنكم مستقلون فى ذلك ويعطيكم أجر المستبد ، والترة النقص ، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه ، ويقول عند القتال إن قتل من الكافرين أحد فقد وتروا فى أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم ، والمؤمن إن قتل فانما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله ، وكيف ولم ينقص من عدده أيضاً ، فإنه حى مرزوق ، فرح بما هو إليه مسوق .

قوله تعالى : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

زيادة فى التسلية يعنى كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد ، وهى لاتفوتك لكونك منصوراً غالباً ، وإن فاتتك فعملك غير موتر ، فكيف وما يفوتك ، فان فات فائت ولم يعوض لا ينبغى لك أن تلتفت إليها لكونها لعباً ولهواً ، وقد ذكرنا فى اللعب واللهو مراراً أن اللعب

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة فى الحال ولا منفعة فى المآل ، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشتغله عن غيره ، ولم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ، ولهذا يقال ملاهى لآلات الملاهى لأنها مشغلة عن الغير ، ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام ، وقد ذكرنا ذلك غير مرة ، وقوله (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) إعادة للوعد والإضافة للتعريف ، أى الأجر الذى وعدكم بقوله (أجر كريم) (وأجر كبير) (وأجر عظيم) وقوله (ولا يسئلكم أموالكم) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن الجهاد لابد له من إنفاق ، فلو قال قائل أنا لا أنفق مالى ، فيقال له الله لا يسئلكم مالكم فى الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيما تحتاجون إليه من المال لا تراعون بإخراجه (وثانيها) الأموال لله وهى فى أيديكم عارية وقد طلب منكم أو أجاز لكم فى صرفها فى جهة الجهاد فلا معنى لبخلكم بماله ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى (وما لكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أى الكل لله (وثالثها) لا يسألكم أموالكم كلها ، وإنما يسألكم شيئاً يسيراً منها وهو ربع العشر ، وهو قليل جداً لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء آخر وليس اسماً مفرداً ، وأما الجزء من أحد عشر ومن اثنى عشر و [إلى] مائة جزء لما لم يكن ملتفتاً إليه لم يوضع له اسم مفرد .

ثم إن الله تعالى لم يوجب ذلك فى رأس المال بل أوجب ذلك فى الربح الذى هو من فضل الله وعطائه ، وإن كان رأس المال أيضاً كذلك لكن هذا المعنى فى الربح أظهر ، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه مالا ينفق ، وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة ، ويحتمل أن لا تكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار فى التقدير كان الربح فى ربعه فأوجب [ربع] عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب ، فعلم أن الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه .

قوله تعالى : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ .

الفاء فى قوله (فيحفكم) للاشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بياناً لشح الأنفس ، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر فكأنه تعالى بين أن الإحفاء يقع عقيب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطى شيئاً وقوله (تبخلوا ويخرج أضغانكم) يعنى ماطلبها ولو طلبها وألح عليكم فى الطلب لبخلتم ، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير وقوله (ويخرج أضغانكم) يعنى بسببه فإن الطالب وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطلبونكم وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون فيفضى إلى القتال وتظهر به الضغائن .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ .

[يعنى] قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل وقوله (هؤلاء) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن تكون موصولة كأنه قال : أنتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا فى سبيل الله (وثانيهما) (هؤلاء) وحدها خبر (أنتم) كما يقال أنت هذا تحقيقاً للشهرة والظهور أى ظهر أمركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدىء (تدعون) وقوله (تدعون) أى إلى الإنفاق إما فى سبيل الله تعالى بالجهاد ، وإما فى صرفه إلى المستحقين من إخوانكم ، وبالجملة فى الجهتين تخذيل الأعداء ونصرة الأولياء (فمنكم من يبخل) ، ثم بين أن ذلك البخل ضرر عائد إليه فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه ، ثم حقق ذلك بقوله (والله الغنى) غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله (وأنتم الفقراء) حتى لا تقولوا إنا أيضاً أغنياء عن القتال ، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن ذلك فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنه لولا القتال لقتلوا ، فإن الكافر إن يغز يغز ، والمحتاج إن لم يدفع حاجته يقصده ، لاسيما أباح الشارع للمضطر ذلك ، وأما فى الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيراً وهو موقوف مسئول (يوم لا ينفع مال ولا بنون) .

قوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ بيان الترتيب من وجهين : (أحدهما) أنه ذكره بياناً للاستغناء ، كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم ، كأنه تعالى يقول : الله غنى عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم . فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده ، فنقول هب أن هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له ، بل الله قادر على أن يخلق خلقاً غيركم يفتخرون بعبادته ، وعالما غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه (وثانيهما) أنه تعالى لما بين الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالأمثلة قال إن أطعتم فلكم أجوركم وزيادة وإن تتولوا لم يبق لكم إلا الإهلاك فإن ما من نبى أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين ، وقوله (ثم لا يكونوا أمثالكم) فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهى :

أن النحاة قالوا : يجوز فى المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم ، الجزم والرفع جميعاً ، قال الله تعالى ههنا (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) بالجزم ، وقال فى موضع آخر (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز ، ففيه تدقيق : وهو أن ههنا لا يكون متعلقاً بالتولى لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتى بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين ، كون من يأتى بهم مطيعين ، وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء ، وههنا جزم للتعليق .

وقوله (ثم لا يكونوا أمثالكم) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون المراد (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى الوصف ولا فى الجنس وهو لائق (الوجه الثانى) وفيه وجوه (أحدها) قوم من العجم (ثانيها) قوم من فارس روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال «هذا وقومه» ثم قال « لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجال من فارس » و (ثالثها) قوم من الأنصار والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وعترته وآل بيته أجمعين وسلم تسليما كثيراً آمين .

٤٧ ـــ سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(مكية وآياتها ثمان وثلاثون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ٤٧ محمد

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ٤٧ محمد

﴿سورة محمد صلى الله عليه وسلم وتسمى سورة القتال وهى مدنية وقيل مكية وآياتها ثمان وثلاثون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) أى أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه من صد صدوداً أو منعوا الناس عن ذلك من صده صداً كالمطعمين يوم بدر وقيل هم إثنا عشر رجلا من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام وقيل هو عام فى كل من كفر وصد (أضل أعمالهم) أى أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها أصلا لكن لا بمعنى أنه * أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها فإن ما كانوا يعملون من أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأسارى وغيرها من المكارم ليس لها أثر من أصلها لعدم مقارنتها للإيمان أو أبطل ماعملوا من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله وهو الأوفق لما سيأتى قوله تعالى فتعساً لهم وأضل أعمالهم وقوله فإذا لقيتم الخ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قيل هم ناس من قريش وقيل من الأنصار وقيل هم ٢ مؤمنوا أهل الكتاب وقيل عام للكل (وآمنوا بما نزل على محمد) خص بالذكر الإيمان بذلك مع * اندارجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر مايجب الإيمان به وأنه الأصل فى الكل ولذلك أكد بقوله تعالى (وهو الحق من ربهم) بطريق حصر الحقية فيه وقيل حقيته بكونه * ناسخاً غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل وأياً ما كان فقوله تعالى من ربهم حال من ضمير الحق وقرىء نزل على البناء للفاعل وأنزل على البناءين و نزل بالتخفيف (كفر * عنهم سيئاتهم) أى سترها بالإيمان والعمل الصالح (وأصلح بالهم) أى حال فى الدين والدنيا بالتأييد * والتوفيق (ذلك) إشارة إلى مامر من إضلال الأعمال وتكفير السيئات وإصلاح البال وهو مبتدأ ٣

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ٤٧ محمد

خبره قوله تعالى (بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى ذلك كائن بسبب أن الأولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد فبيان سببية اتباعه للإضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه أصلا مستتبعاً لهما قطعاً وبسبب أن الآخرين اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائناً من ربهم ففعلوا ما فعلوا من الإيمان به وبكتابه ومن الأعمال الصالحة فبيان سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببية الإيمان والعمل الصالح له متضمن لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تدافع بين الإشعار والتصريح فى شىء من الموضعين ويجوز أن يحمل الباطل ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذى لا أصل له أصلا فالتصريح بسببية اتباعه لإضلال أعمالهم وإبطالها لبيان أن إبطالها لبطلان مبناها وزواله وأما حمله على ما لا ينتفع به فليس كما ينبغى لما أن الكفر والصد أخش منه فلا وجه للتصريح بسببيته لما ذكر من إضلال أعمالهم بطريق القصر بعد الإشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز أن يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الإيمان والأعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الإضلال ومن التكفير والإصلاح تصريحاً بالسببية المشعر بها فى الموقعين (كذلك) أى مثل ذلك الضرب البديع (يضرب الله) أى يبين (للناس أمثالهم) أى أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال وهى اتباع الأولين الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء فى قوله تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا) لترتيب ما فى حيزها من الأمر على ما قبلها فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق من الأحكام أى فإذا كان الأمر كما ذكر فإذا لقيتموهم فى المحاربة (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه (حتى إذا أثخنتموهم) أى أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشىء الثخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض (فشدوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرىء بذلك (فإما مناً بعد وإما فداء) أى فإما تمنون مناً بعد ذلك أو تفدون فداء والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمن والفداء وهذا ثابت عند الشافعى رحمه الله تعالى وعندنا منسوخ قالوا نزل ذلك يوم بدر ثم نسخ والحكم إما القتل أو الاسترقاق وعن مجاهد ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق وقرىء فدا كعصا (حتى تضع الحرب أوزارها) أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التى

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ٤٧ محمد

وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ٤٧ محمد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ٤٧ محمد

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ٤٧ محمد

لاتقوم إلا بها من السلاح والكراع وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسناداً مجازياً وحتى غاية عند الشافعى لأحد الأمور الأربعة أو للمجموع والمعنى أنهم لايزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لاتبقى لهم شوكة وقيل بأن ينزل عيسى عليه السلام وأما عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فإن حمل الحرب على حرب بدر فهى غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها وإن حملت على الجنس فهى غاية للضرب والشد والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى يضع جنس الحرب أوزارها بأن لايبقى للمشركين شوكة وقيل أوزارها آثامها أى حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم بأن أسلموا (ذلك) أى الأمر ذلك أو افعلوا ذلك (ولو يشاء الله لانتصر منهم) لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال (ولكن) لم يشأ ذلك (ليبلو بعضكم ببعض) فأمركم بالقتال وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجب الوعد والكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عذابهم كى يرتدع بعضهم عن الكفر (والذين قتلوا فى سبيل الله) أى استشهدوا وقرىء قاتلوا أى جاهدوا وقتلوا وقتلوا (فلن يضل أعمالهم) أى فلن يضيعها وقرىء يضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضل وعن قتادة أنها نزلت فى يوم أحد (سيهديهم) فى الدنيا إلى أرشد الأمور وفى الآخرة إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم (ويصلح بالهم) (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) فى الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها أو بينها لهم بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدى إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق وعن مقاتل أن الملك الموكل بعمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شىء أعطاه الله تعالى أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة أوحددها لهم وأفرزها من عرف الدار فجنة كل منهم محددة مفرزة والجملة إما مستأنفة أو حال بإضمار قد أو بدونه (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) أى دينه ورسوله (ينصركم) على أعدائكم ويفتح لكم (ويثبت أقدمكم) فى مواطن الحرب ومواقفها أو على محجة الإسلام (والذين كفروا فتعساً لهم) التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعاً أى فقال تعساً لهم أو فقضى تعساً لهم وقوله تعالى (وأضل أعمالهم) عطف عليه داخل معه فى حيز الخبرية للموصول (ذلك) أى ماذكر من التعس وإضلال الأعمال (بأنهم) بسبب أنهم (كرهوا ما أنزل الله) من القرآن

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ٤٧ محمد

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ٤٧ محمد

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ٤٧ محمد

---

* لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء (فأحبط)
١٠ لأجل ذلك (أعمالهم) التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لأثيبوا عليها (أفلم يسيروا في الأرض) أي أقعدوا
* في أماكنهم فلم يسيروا فيها (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم المكذبة فإن آثار ديارهم
* تنبيء عن أخبارهم وقوله تعالى (دمر الله عليهم) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل
كيف كان عاقبتهم فقيل استأصل الله تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم يقال
* دمره أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به (وللكافرين) أي ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم
* (أمثالها) أمثال عواقبهم أو عقوباتهم لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله وإنما
جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة وقيل يجوز أن يكون عذابهم أشد من
عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل أشد
ألما من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه
١١ قيل دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها (ذلك) إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم
* السالفة لهؤلاء (بأن الله مولى الذين آمنوا) أي ناصرهم على أعدائهم وقرىء ولى الذين (وأن الكافرين
لا مولى لهم) فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى ثم ردوا إلى الله
١٢ مولاهم الحق فإن المولى هناك بمعنى المالك (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى
* من تحتها الأنهار) بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية (والذين كفروا يتمتعون) أي ينتفعون
* في الدنيا بمتاعها (ويأكلون كما تأكل الأنعام) غافلين عن عواقبهم (والنار مثوى لهم) أي منزل ثواء
١٣ وإقامة والجملة إما حال مقدرة من واو يأكلون أو استئناف (وكأين) كلمة مركبة من الكاف وأي
* بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى (من قرية) تمييز لها وقوله تعالى (هي أشد قوة من
* قريتك) صفة لقرية كما أن قوله تعالى (التي أخرجتك) صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف وأجرى
* أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى (أهلكناهم) أي وكم من أهل قرية هم أشد

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ٤٧ محمد

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ٤٧ محمد

قوة من أهل قريتك الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم ووصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها وعلى طريقته قول النابغة [كليب لعمرى كان أكثر ناصراً * وأيسر جرما منك ضرج بالدم] وقوله تعالى (فلا ناصر لهم) بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان * والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وهو حكاية حال ماضية (أفمن كان على بينة من ربه) تقرير لتباين حالى فريقى المؤمنين والكافرين وكون ١٤ الأولين فى أعلى عليين والآخرين فى أسفل سافلين وبيان لعلة مالكل منهما من الحال والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرىء بدونها ومن عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين وجعلها عبارة عن النبى عليه الصلاة والسلام أو عنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم على أن الموازنة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم مما يأباه منصبه الجليل والتقدير أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقراً على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية (كمن زين له سوء عمله) من الشرك وسائر المعاصى مع كونه فى نفسه أقبح القبائح (واتبعوا) * بسبب ذلك التزيين (أهواءهم) الزائغة وانهمكوا فى فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم * صحة ما هم عليه فضلا عن حجة تدل عليه وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى من كما أن إفراد الأولين باعتبار لفظها (مثل الجنة التى وعد المتقون) استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفاً للمؤمنين ١٥ وبيان كيفية أنهارها التى أشير إلى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها ومثلها وصفها العجيب الشأن وهو مبتدأ محذوف الخبر فقدره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون وقوله تعالى (فيها * أنهار) الخ مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والأول هو الأنسب لصدر النظم الكريم وقيل المثل زائدة كزيادة الاسم فى قول من قال [إلى الحول ثم اسم السلام عليكما] والجنة مبتدأ خبره فيها أنهار الخ (من ماء غير آسن) غير متغير الطعم والرائحة وقرىء غير آسن (وأنهار من لبن لم يتغير * طعمه) بأن صار قارصاً ولا خازراً كألبان الدنيا (وأنهار من خمر لذة للشاربين) لذيذة ليس فيها كراهة * طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وإنما هى تلذذ محض ولذة إما تأنيث لذ بمعنى لذيذ أو مصدر نعت

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ٤٧ محمد

وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ٤٧ محمد

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ٤٧ محمد

* به مبالغة وقرىء لذة بالرفع على أنها صفة أنهار وبالنصب على العلة أى لأجل لذة للشاربين (وأنهار من عسل مصفى) لايخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفى هذا تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنة بأنواع مايستطاب منها ويستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينغصها وينقصها والتحلية بما يوجب غزارتها
* ودوامها (ولهم فيها) مع ماذكر من فنون الأنهار (من كل الثمرات) أى صنف من كل الثمرات (ومغفرة)
* أى ولهم مغفرة عظيمة لايقادر قدرها وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة
* لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من ربهم وقوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على أن فى الكلام حذفا تقديره أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار أو أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار فعرى عن حرف الإنكار وحذف ماحذف تصويراً لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة وبين التابع للهوى
* بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار (وسقوا ماء حميماً) مكان
* تلك الأشربة (فقطع أمعاءهم) من فرط الحرارة قيل إذادنا منهم شوى وجوههم وانمارت فروة رؤسهم
١٦ فإذا شربوه قطع أمعاءهم (ومنهم من يستمع إليك) هم المنافقون وإفراد الضمير باعتبار لفظ من كما أن جمعه فيما سيأتى باعتبار معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه
* ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاوناً منهم (حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم)
* من الصحابة رضى الله عنهم (ماذا قال آنفاً) أى ما الذى قال الساعة على طريقة الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام وآنفاً من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة ومنه استأنف الشيء
* وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً أو حال من الضمير فى قال وقرىء أنفاً (أولئك) الموصوفون
* بما ذكر (الذين طبع الله على قلوبهم) لعدم توجههم نحو الخير أصلا (واتبعوا أهواءهم) الباطلة فلذلك
١٧ فعلوا مافعلوا مما لاخير فيه (والذين اهتدوا) إلى طريق الحق (زادهم) أى الله تعالى (هدى) بالتوفيق
١٨ والإلهام (وآتاهم تقواهم) أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها أو بين لهم مايتقون (فهل ينظرون
* إلا الساعة) أى القيامة وقوله تعالى (أن تأتيهم بغتة) أى تباغتهم بغتة وهى المفاجأة بدل اشتمال من

فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ٤٧ محمد

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ٤٧ محمد

الساعة والمعنى أنهم لايتذكرون بذكر أهوال الأمم الخالية ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال ومايتنظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتة وقرىء بغتة بفتح الغين وقوله تعالى (فقد جاء أشراطها) تعليل لمفاجأتها لا لإتيانها مطلقاً على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر * أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من مبادى إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والأشراط جمع شرط بالتحريك وهى العلامة والمراد بها مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى (فأنى لهم إذاجاءتهم ذكراهم) * حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله تعالى يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى أى وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم على أن أنى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ وإذاجاءتهم اعتراض وسط بينهما رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها وإطلاق المجىء عن قيد البغتة لما أن مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئها مطلقاً لا مقيداً بقيد البغتة وقرىء إن تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه فأنى لهم الخ والمعنى إن تأتهم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها فكيف لهم تذكرهم واتعاظهم إذاجاءتهم (فاعلم ١٩ أنه لا إله إلا الله) أى إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه (واستغفر لذنبك) وهو الذى ربما يصدر * عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل كيف لا وحسنات الأبرار سيئات المقربين وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل (وللمؤمنين والمؤمنات) أى لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبهم فيما يستدعى غفرانهم وفى إعادة صلة الاستغفار * تنبيه على اختلاف متعلقيه جنساً وفى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إشعار بعراقتهم فى الذنب وفرط افتقارهم إلى الاستغفار (والله يعلم متقلبكم) فى الدنيا فإنها مراحل لابد من قطعها * لا محالة (ومثواكم) فى العقبى فإنها مواطن إقامتكم فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما فبادروا إلى الامتثال * بما أمركم به فإنه المهم لكم فى المقامين وقيل يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها (ويقول الذين ٢٠ آمنوا) حرصاً منهم على الجهاد (لولا نزلت سورة) أى هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد (فإذا أنزلت * سورة محكمة وذكر فيها القتال) بطريق الأمر به أى سورة مبينة لاتشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال. عن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة لم تنسخ وقرىء فإذا نزلت

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ٤٧ محمد

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ٤٧ محمد

سورة وقرىء وذكر على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصب القتال (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف فى الدين وقيل نفاق وهو الأظهر الأوفق لسياق النظم الكريم (ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) أى تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً كدأب من أصابته غشية الموت (فأولى لهم) أى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم وقيل هو مشتق من الويل وأصله أويل نقلت العين إلى ما بعد اللام فوزنه أفلع (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف أى أمرهم طاعة الخ أو طاعة وقول معروف خير لهم أو حكاية لقولهم ويؤيده قراءة أبى يقولون طاعة وقول معروف أى أمرنا ذلك (فإذا عزم الأمر) أسند العزم وهو الجد إلى الأمر وهو لأصحابه مجازاً كما فى قوله تعالى إن ذلك من عزم الأمور وعامل الظرف محذوف أى خالفوا وتخلفوا وقيل ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى (فلو صدقوا الله) على طريقة قولك إذا حضرنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك أى فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد بالجرى على موجبه (لكان) أى الصدق (خيراً لهم) وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى لولا نزلت سورة وقيل فلو صدقوه فى الإيمان وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم وأياً ما كان فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى (فهل عسيتم) الخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع أى هل يتوقع منكم (إن توليتم) أمور الناس وتأمرتم عليهم (أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) تناحراً على الملك وتهالكاً على الدنيا فإن من شاهد أحوالكم الدالة على الضعف فى الدين والحرص على الدنيا حين أمرتم بالجهاد الذى هو عبارة عن إحراز كل خير وصلاح ودفع كل شر وفساد وأنتم مأمورون شأنكم الطاعة والقول المعروف يتوقع منكم إذا أطلقت أعنتكم وصرتم آمرين ماذكر من الإفساد وقطع الأرحام وقيل إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات وفيه أن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لابد أن تكون محذوريته باعتبار مايستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب فى أن الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة فى التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد وقرىء وليتم على البناء للمفعول أى جعلتم ولاة وقرىء توليتم أى تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم فى الإفساد وقطيعة الرحم وقرىء وتقطعوا من التقطع بحذف إحدى التاءين فانتصاب أرحامكم حينئذ على نزع الجار أى فى أرحامكم وقرىء وتقطعوا من القطع وإلحاق الضمير بعسى لغة أهل الحجاز وأما بنو

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ٤٧ محمد

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ٤٧ محمد

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ٤٧ محمد

تميم فيقولون عسى أن تفعل وعسى أن تفعلوا (أولئك) إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات إيذاناً ٢٣
بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ خبره
(الذين لعنهم الله) أى أبعدهم من رحمته (فأصمهم) عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم *
(وأعمى أبصارهم) لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق (أفلا يتدبرون ٢٤
القرآن) أى ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه
من الموبقات (أم على قلوب أقفالها) فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلا وأم منقطعة وما فيها من معنى *
بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر والهمزة
للتقرير وتنكير القلوب إما لتهويل حالها وتفظيع شأنها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة كأنه قيل على
قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القساوة وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم وهم
المنافقون وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال
المعهودة وقرىء أقفلها وأقفالها على المصدر (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) أى رجعوا إلى ما كانوا ٢٥
عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأفعال والأحوال
فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام (من بعد ما تبين لهم الهدى) بالدلائل الظاهرة والمعجزات *
القاهرة وقيل هم اليهود وقيل أهل الكتابين جميعاً كفروا به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نعته
فى كتابهم وعرفوا أنه المنعوت بذلك وقوله تعالى (الشيطان سول لهم) جملة من مبتدأ وخبر وقعت *
خبراً لأن أى سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقيل من السول المخفف من السؤل
لاستمرار القلب فمعنى سول له أمراً حينئذ أوقعه فى أمنيته فإن السؤل الأمنية وقرىء سول مبنياً
للمفعول على حذف المضاف أى كيد الشيطان (وأملى لهم) ومد لهم فى الأمانى والآمال وقيل أمهلهم *
الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرىء وأملى لهم على صيغة المتكلم فالمعنى أن الشيطان يغويهم وأنا
أنظرهم فالواو للحال أو للاستئناف وقرىء أملى لهم على البناء للمفعول أى أمهلوا ومد فى عمرهم (ذلك) ٢٦
إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم لا إلى الإملاء كما نقل عن الواحدى ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئاً
منهما ليس مسبباً عن القول الآتى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأنهم) أى بسبب أنهم (قالوا) يعنى *
المنافقين المذكورين لا لليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نعته فى التوراة كما قيل

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ٤٧ محمد

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ٤٧ محمد

فإن كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين أو المشركين على رأى القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام (للذين كرهوا ما نزل الله) أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسداً وطمعاً فى نزوله عليهم لا للمشركين كما قيل فإن قوله تعالى (سنطيعكم فى بعض الأمر) عبارة قطعاً عما حكى عنهم بقوله تعالى ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وأرادوا بالبعض الذى أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم فى إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية وإنما كانوا يقولون لهم مايقولون سراً كما يعرب عنه قوله تعالى (والله يعلم إسرارهم) أى إخفاءهم لما يقولونه لليهود وقرىء أسرارهم أى جميع أسرارهم التى من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للإفشاء فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة

٢٧ والفاء فى قوله تعالى (فكيف إذا توفتهم الملائكة) لترتيب مابعدها على ماقبلها وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف كأنه قيل يفعلون فى حياتهم مايفعلون من الحيل فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة وقيل مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفتهم الخ وقرىء توفاهم على أنه إما ماض أو مضارع قد حذف إحدى تاءيه (يضربون وجوههم وأدبارهم) حال من فاعل توفتهم أو من مفعوله وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب الملائكة وجهه ودبره

٢٨ (ذلك) التوفى الهائل (بأنهم) أى بسبب أنهم (اتبعوا ما أسخط الله) من الكفر والمعاصى (وكرهوا رضوانه) أى مايرضاه من الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود (فأحبط) لأجل ذلك (أعمالهم) التى عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التى لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها

٢٩ (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض) هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدار لما نعى عليهم بقوله تعالى (أن لن يخرج الله أضغانهم) فأم منقطعة وأن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف ولن بما فى حيزها خبرها والأضغان جمع ضغن وهو الحقد أى بل أحسب الذين فى قلوبهم حقداً وعداوة للمؤمنين أنه لن يخرج الله أحقادهم

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ٤٧ محمد

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ٤٧ محمد

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ٤٧ محمد

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ ٤٧ محمد

ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة والمعنى أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال (ولو نشاء) إراءتهم (لأريناكهم) لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية والالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة (فلعرفتهم بسيماهم) بعلامتهم التي نسمهم بها وعن أنس رضى الله عنه ماخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى كل واحد منهم مكتوب هذا منافق واللام لام الجواب كررت فى المعطوف للتأكيد والفاء لترتيب المعرفة على الإراءة وأما ما فى قوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول) فلجواب قسم محذوف ولحن القول نحوه وأسلوبه أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطىء لاحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب (والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين (ولنبلونكم) بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاق الجهاد علماً فعلياً يتعلق به الجزاء (ونبلوا أخباركم) مايخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها وقرىء ويبلو بالياء وقرىء ونبلو بسكون الواو على ونحن نبلوا (إن الذين كفروا وصدوا) الناس (عن سبيل الله وشاقوا الرسول) وعادوه (من بعد ماتبين لهم الهدى) بماشاهدوا نعته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وبما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) بكفرهم وصدهم (شيئاً) من الأشياء أو شيئاً من الضرر أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئاً وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته (وسيحبط أعمالهم) أى مكايدهم التي نصبوها فى إبطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ٤٧ محمد

فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ٤٧ محمد

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ٤٧ محمد

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ٤٧ محمد

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ٤٧ محمد

---

٣٤ (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) حكم يعم كل من مات
٣٥ على الكفر وإن صح نزوله فى أصحاب القليب (فلا تهنوا) أى لا تضعفوا (وتدعوا إلى السلم) أى
ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً فإن ذلك إعطاء الدنية ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن على
جواب النهى وقرىء ولا تدعوا من ادعى القوم بمعنى تداعوا نحو ارتموا الصيد وتراموه ومنه تراءوا
الهلال فإن صيغة التفاعل قد يراد بها صدور الفعل عن المتعدد من غير اعتبار وقوعه عليه ومنه قوله
تعالى عم يتساءلون على أحد الوجهين والفاء لترتيب النهى على ما سبق من الأمر بالطاعة وقوله تعالى
* (وأنتم الأعلون) جملة حالية مقررة لمعنى النهى مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى (والله معكم)
فإن كونهم الأعلين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة
* وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ولن يتركم أعمالكم) أى ولن يضيعها
من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم فأفردته عنه من الوتر الذى هو الفرد وعبر
عن ترك الإثابة فى مقابلة الأعمال بالوتر الذى هو إضاعة شىء معتد به من الأنفس والأموال مع أن
الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق
المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها وقدمر فى قوله تعالى فاستجاب لهم
٣٦ ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لاثبات لها ولا اعتداد بها (وإن
تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) أى ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها
* المتنافسون (ولا يسألكم أموالكم) بحيث يخل أداؤها بمعاشكم وإنما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع
٣٧ العشر تؤدونها إلى فقرائكم (إن يسألكموها) أى أموالكم (فيحفكم) أى يجهدكم بطلب الكل فإن
* الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال أحفى شاربه إذا استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا (ويخرج
أضغانكم) أى أحقادكم وضمير يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة أو للبخل لأنه سبب الأضغان
٣٨ وقرىء يخرج من الخروج بالياء والتاء مسنداً إلى الأضغان (ها أنتم هؤلاء) أى أنتم أيها المخاطبون

﴿سورة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٤٧﴾

وتسمى سورة القتال ، وهي مدنية عند الاكثرين ولم يذكروا استثناء ، وعن ابن عباس . وقتادة أنها مدنية الا قوله تعالى : (وكأين من قرية) الى آخره فانه صلى الله تعالى عليه وسلم لما خرج من مكة الى الغار التفت اليه وقال : « أنت أحب بلاد الله تعالى الى الله وأنت احب بلاد الله تعالى الى ولولا ان اهلك اخرجونى منك لم اخرج منك » فانزل الله تعالى ذلك فيكون مكيا بناء على ان ما نزل فى طريق المدينة قبل ان يبلغها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم - اعنى ما نزل فى سفر الهجرة - من المكى اصطلاحا كما يؤخذ من أثر اخرجه عثمان ابن سعيد الدارمى بسنده الى يحيى بن سلام ، وعدة آيها أربعون فى البصرى وثمان وثلاثون فى الكوفى وتسع بالتاء الفوقية وثلاثون فيما عداهما ، والخلاف فى قوله تعالى : (حتى تضع الحرب اوزارها) وقوله تعالى : (لذة للشاربين) ولا يخفى قوة ارتباط اولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا متصلا واحدا لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذا بعضه بعنق بعض ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم على ما أخرج الطبرانى فى الاوسط عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما يقرؤها فى صلاة المغرب *

واخرج ابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه انه قال : نزلت سورة محمد آية فينا وآية فى بنى امية ، ولا أظن صحة الخبر . نعم لكفار بنى أمية الحظ الاوفر من عمومات الآيات التى فى الكفار كما ان لأهل البيت رضى الله تعالى عنهم المعلى والرقيب من عمومات الآيات التى فى المؤمنين ، وأكثر من هذا لا يقال سوى أنى أقول : لعن الله تعالى من قطع الارحام وآذى الآل *

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى أعرضوا عن الاسلام وسلوك طريقه أو منعوا غيرهم عن ذلك على ان صد لازم أو متعد ، قال فى الكشف : والاول أظهر لأن الصد عن سبيل الله هو الاعراض عما أتى به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله تعالى : (قل هذه سبيلى أدعو الى الله) فيطابق قوله تعالى : (والذين امنوا وعملوا الصالحات وءامنوا بما نزل على محمد) وكثير من الآثار تؤيد الثانى ، وفسر الضحاك (سبيل الله) ببيت الله عز وجل ، وقال : صدهم عنه منعهم قاصديه وليس بذلك *

والآية عامة لكل من اتصف بعنوان الصلة ، وقال ابن عباس : هم أى الذين كفروا وصدوا على الوجه الثانى فى (صدوا) المطعمون يوم بدر الكبرى ، وكأنه عنى من يدخل فى العموم دخولا أوليا ، فان أولئك كانوا صادين بأموالهم وأنفسهم فصدهم أعظم من صد غيرهم ممن كفر وصد عن السبيل ، وأول من أطعم منهم - على ما نقل عن سيرة ابن سيد الناس - أبو جهل عليه اللعنة نحر لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشرا من الابل ، ثم صفو ان بن امية نحر تسعا بعسفان ، ثم سهل بن عمرو نحر بقديد عشرا ثم شيبة بن ربيعة وقد ضلوا الطريق نحر تسعا ثم عتبة بن ربيعة نحر عشرا ، ثم مقيس الجمحى بالابواء نحر تسعا ، ثم العباس نحر عشرا ، والحرث بن عامر نحر تسعا ، وأبو البختري على ماء بدر نحر عشرا ، ومقيس تسعا ، ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم ، وقيل : كانوا ستة نفر نبيه . ومنبه ابنا الحجاج . وعتبة . وشيبة ابنا ربيعة . وابو جهل . والحرث ابنا هشام ، وضم مقاتل اليهم ستة أخرى وهم عامر بن نوفل . وحكيم بن حزام . وزمعة بن الاسود . والعباس بن عبد المطلب . وصفوان بن امية . وابو سفيان بن حرب أطعم كل واحد منهم يوما الاحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا ينافى عد أبى سفيان ان صحت الرواية من أولئك كونه مع العير لأن المراد بيوم بدر زمن وقعتها فيشمل من اطعم فى الطريق وفى مدتها حتى انقضت ، وقال مقاتل : هم اثنا عشر رجلا من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الاسلام ويأمرونهم بالكفر ، وقيل : هم شياطين من اهل الكتاب صدوا من اراد منهم أو من غيرهم عن الدخول فى الاسلام *

والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ١ ﴾ أى ابطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها ولا نفع أصلا لا بمعنى انه سبحانه أبطلها واحبطها بعدان لم تكن كذلك بل بمعنى انه عز وجل حكم ببطلانها وضياعها وأريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البر كصلة الارحام وقرى الاضياف وفك الاسارى وغيرها من المكارم *

وجوز أن يكون المعنى جعلها ضلالا أى غير هدى حيث لم يوفقهم سبحانه لأن يقصدوا بها وجهه سبحانه أو جعلها ضالة أى غير مهتدية على الاسناد المجازى ، ومن قال الآية فى المطعمين واضرابهم قال : المعنى ابطل جل وعلا ما عملوه من الكيد لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كالانفاق الذى انفقوه فى سفرهم الى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره بنصر رسوله ﷺ واظهار دينه على الدين كله ، ولعله أوفق بما بعده ، وكذا بما قيل ان الآية نزلت ببدر *

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال ابن عباس فيما أخرجه عنه جماعة منهم الحاكم وصححه هم أهل المدينة الانصار ، وفسر رضى الله تعالى عنه (الذين كفروا) بأهل مكة قريش ، وقال مقاتل : هم ناس من قريش ، وقيل : مؤمنو أهل الكتاب ، وقيل : أعم من المذكورين وغيرهم فان الموصول من صيغ العموم ولا داعى للتخصيص ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ من القران ، وخص بالذكر الايمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الايمان به وأنه الاصل فى الكل ولذلك أكد بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو جملة معترضة بين المبتدا والخبر مفيدة لحصر الحقية فيه على طريقة الحصر فى قوله تعالى : (ذلك الكتاب) وقولك : حاتم الجواد فيراد بالحق ضد الباطل ، وجوز ان يكون الحصر على ظاهره والحق الثابت ، وحقية مانزل عليه عليه الصلاة والسلام لكونه ناسخا لا ينسخ

وهذا يقتضي الاعتناء به ومنه جاء التأكيد، وأياما كان فقوله تعالى: (من ربهم) حال من ضمير (الحق)، وقرأ زيد بن علي، وابن مقسم (نزل) مبنيا للفاعل، والاعمش (أنزل) معدى بالهمزة مبنيا للمفعول. وقرىء (أنزل) بالهمز مبنيا للفاعل (ونزل) بالتخفيف ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي سترها بالايمان والعمل الصالح، والمراد ازالها ولم يؤاخذهم بها ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ٢ ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، وتفسير البال بالحال مروي عن قتادة وعنه تفسيره بالشان وهو الحال ايضا أو ماله خطر، وعليه قول الراغب: البال الحال التي يكترث بها، ولذلك يقال: ما باليت بكذا بالة أي ما اكترثت به، ومنه قوله ﷺ: «كل أمر ذي بال» الحديث ويكون بمعنى الخاطر القلبي ويتجوز به عن القلب كما قال الشهاب. وفي البحر حقيقة البال الفكر والموضع الذي فيه نظر الانسان وهو القلب ومن صلح قلبه صلحت حاله، فكأن اللفظ مشير الى صلاح عقيدتهم وغير ذلك من الحال تابع له، وحكى عن السفاقسي تفسيره هنا بالفكر وكأنه لنحو ما أشير اليه، وهو كما في البحر أيضا مما لا يثنى ولا يجمع وشذ قولهم في جمعه بالات ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اشارة الى ما مر من الاضلال والتكفير والاصلاح وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ذلك كائن بسبب اتباع الاولين الباطل واتباع الاخرين الحق، والمراد بالحق والباطل معناهما المشهور *

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن مجاهد تفسير (الباطل) بالشيطان. وفي البحر قال مجاهد: الباطل الشيطان وكل ما يأمر به و(الحق) هو الرسول والشرع، وقيل: الباطل ما لا ينتفع به، وجوز الزمخشري كون ذلك خبر مبتدأ محذوف و(بأن) الخ في محل نصب على الحال، والتقدير الامر ذلك أي كما ذكر ما متبسا بهذا السبب *

والعامل في الحال اما معنى الاشارة واما نحو اثبته واحققه فان الجملة تدل على ذلك لأنه مضمون كل خبر وتعقبه ابو حيان بأن فيه ارتكابا للحذف من غير داع له، والجار والمجرور اعني (من ربهم) في موضع الحال على كل حال، والكلام أعني قوله تعالى: (ذلك بأن) الى قوله سبحانه: (من ربهم) تصريح بما أشعر به الكلام السابق من السببية لما فيه من البناء على الموصول، ويسميه علماء البيان التفسير، ونظيره ما أنشده الزمخشري لنفسه *

به فجع الفرسان فوق خيولهم   كما فجعت تحت الستور العواتق
تساقط من أيديهم البيض حيرة   وزعزع عن اجيادهن المخانق

فان فيه تفسيرا على طريق اللف والنشر كما في الآية وهو من محاسن الكلام ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ ﴾ أي يبين ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي لأجلهم ﴿ أَمْثَالَهُمْ ٣ ﴾ أي أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الامثال، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم، وجوز أن يراد بضرب الامثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار والاضلال مثلا لخيبتهم واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين وتكفير السيآت مثلا لفوزهم والاشارة بذلك لما تضمنه الكلام السابق، وجوز كون ضمير (أمثالهم) للناس، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لترتيب ما في حيزها من الامر على ماقبلها فان ضلال اعمال الكفرة وخيبتهم

وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يترتب على كل من الجانبين مايليق به من الاحكام أى إذا كان الامر كذلك فاذا لقيتموهم فى المحارب ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ وقال الزمخشرى : (لقيتم) من اللقاء وهو الحرب و(ضرب) نصب على المصدرية لفعل محذوف والاصل اضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وحذف الفعل الناصب فى مثل ذلك مما أضيف إلي معموله واجب ، وهو أحد مواضع يجب فيها الحذف ذكرت فى مطولات كتب النحو ، وليس منها نحو ضربا زيداً على مانص عليه ابن عصفور *

وذكر غير واحد أن فيما ذكر اختصاراً وتأكيدا ولا كلام فى الاختصار ، وأما التأكيد فظاهر القول به أن المصدر بعد حذف عامله مؤكد ، وقال الحمصى فى حواشي التصريح : إن المصدر فى ذلك مؤكد فى الاصل وأما الآن فلا لأنه صار بمنزلة الفعل الذى سدهو مسده فلا يكون مؤكداً بل كل مصدر صار بدلا من اللفظ بالفعل لا يكون مؤكداً ولا مبينا لنوع ولا عدد ، و(ضرب الرقاب) مجاز مرسل عن القتل ، وعبر به عنه إشعارا بأنه ينبغى أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن وتصويرا له بأشنع صورة لأن ضرب الرقبة فيه اطارة الرأس الذى هو أشرف أعضاء البدن ومجمع حواسه وبقاء البدن ملقى على هيئة منكرة والعياذ بالله تعالى ، وذكر أن فى التعبير المذكور تشجيع المؤمنين وأنهم منهم بحيث يتمكنون من القتل بضرب أعناقهم فى الحرب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾ أى أوقعتم القتل بهم بشدة وكثرة على أن ذلك مستعار من ثخن المائعات لمنعه عن الحركة ، والمراد حتى إذا أكثرتم قتلهم وتمكنتم من أخذ من لم يقتل ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ أى فأسروهم واحفظوهم ، فالشد وكذا مابعد فى حق من أسر منهم بعد اثخانهم لا للمثخن إذ هو بالمعنى السابق لايشد ولا يمن عليه ولا يفدى لأنه قد قتل أو المعنى حتى إذا أثقلتموهم بالجراح ونحوه بحيث لا يستطيعون النهوض فأسروهم واحفظوهم ، فالشد وكذا مابعد فى حق المثخن لأنه بهذا المعنى هو الذى لم يصل إلى حد القتل لكن ثقل عن الحركة فصار كالشيء الثخين الذى لم يسل ولم يستمر فى ذهابه ، والاثخان عليه مجاز أيضا ، و(الوثاق) فى الاصل مصدر كالخلاص وأريد به هنا ما يوثق به . وقرئ (الوثاق) بالكسر وهو اسم لذلك ، ومجيء فعال اسم آلة كالحزام والركاب نادر على خلاف القياس ، وظاهر كلام البعض أن كلا من المفتوح والمكسور اسم لما يوثق به ، ولعل المراد بيان المراد هنا *

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ أى فاما تمنون منا وإما تفدون فداء ، والكلام تفصيل لعاقبة مضمون ماقبله من شد الوثاق ، وحذف الفعل الناصب للمصدر فى مثل ذلك واجب أيضا ، ومنه قوله :

لأجهدن فاما درء واقعة تخشى وإما بلوغ السؤل والامل

وجوز أبو البقاء كون كل من (منا) و(فداء) مفعولا به لمحذوف أى أولوهم منا أواقبلوا منهم فداء ، وليس - كما قال أبو حيان - اعراب نحوى ، وقرأ ابن كثير فى رواية شبل (واما فدى) بالفتح والقصر كعصا. وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته ، قال الشهاب : ولا عبرة به فان فيه أربع لغات الفتح والكسر مع المد والقصر ولغة خامسة البناء مع الكسر كما حكاه الثقات انتهى ، وفى الكشف نقلا عن الصحاح الفداء إذا كسر أوله يمد ويقصر وإذا فتح فهو مقصور . ومن العرب من يكسر الهمزة أى يبنيه على الكسر إذا جاور لام الجر خاصة لأنه اسم فعل بمعنى الدعاء ، وأنشد الاصمعى بيت النابغة * مهلا فداء لك * وهذا الكسر مع التنوين

كما صرح به فى البحر، وظاهر الآية ـ على ماذكره السيوطى فى أحكام القرآن العظيم ـ امتناع القتل بعد الاسر وبه قال الحسن. وأخرج ابن جرير. وابن مردويه عنه أنه قال: أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما رجلا يقتله فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا إنما قال الله تعالى: (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد وإما فداء) وفى حكم الاسارى خلاف فذهب الأكثرون إلى أن الامام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قتل صبرا عقبة بن أبى معيط. وطعيمة بن عدى. والنضر بن الحرث التى قالت فيه أخته أبياتا منها تخاطب النبى ﷺ:

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

ولأن فى قتلهم حسم مادة فسادهم بالكلية، وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه فان فعل بلا ملجئ كخوف شر الاسير كان للامام ان يعزره إذا وقع على خلاف مقصوده ولكن لايضمن شيئا، وإن شاء استرقهم لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الاسلام، وإن شاء تركهم ذمة احرارا للمسلمين كما فعل عمر رضى الله تعالى عنه ذلك فى أهل السواد الأسارى مشركى العرب والمرتدين فانهم لاتقبل منهم جزية ولا يجوز استرقاقهم بل الحكم فيهم اما الاسلام أو السيف، وإن أسلم الاسارى بعد الاسر لا يقتلهم لاندفاع شرهم بالاسلام، ولكن يجوز استرقاقهم فان الاسلام لاينافى الرق جزاء على الكفر الاصلى وقد وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء على الحربى غير المشرك من العرب، بخلاف مالو أسلموا من قبل الأخذ فانهم يكونون أحرارا لأنه اسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم، ولايفادى بالاسارى فى احدى الروايتين عن الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه لما فى ذلك من معونة الكفر لأنه يعود الاسير الكافر حربا علينا، ودفع شر حرابته خير من استنقاذ المسلم لأنه إذا بقى فى أيديهم كان ابتلاء فى حقه فقط، والضرر بدفع أسيرهم اليهم يعود على جماعة المسلمين *

والرواية الاخرى عنه أنه يفادى وهو قول محمد. وأبى يوسف. والامام الشافعى. ومالك. وأحمد الا بالنساء فانه لايجوز المفاداة بهن عندهم، ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية السير الكبير، قيل: وهو أظهر الروايتين عن الامام أبى حنيفة، وقال أبو يوسف: تجوز المفاداة بالاسارى قبل القسمة لابعدها، وعند محمد تجوز بكل حال. ووجه ماذكره الأئمة من جواز المفاداة أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر للانتفاع به ولأن حرمته عظيمة وماذكر من الضرر الذى يعود الينا بدفعه اليهم يدفعه ظاهرا المسلم الذى يتخلص منهم لأنه ضرر شخص واحد فيقوم بدفعه واحد مثله ظاهرا فيتكافئان وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى فان فيها زيادة ترجيح *

ثم انه قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ أخرج مسلم. وأبو داود. والترمذى. وعبد بن حميد. وابن جرير عن عمران ابن حصين أن رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين ويحتج لمحمد بما اخرجه مسلم أيضا عن اياس ابن سلمة عن أبيه سلمة قال: خرجنا مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه أمره علينا رسول الله ﷺ الى أن قال فلقينى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الغد فى السوق فقال: ياسلمة هب لى المرأة يعنى التى نفله أبو بكر اياها ـ فقلت: يارسول الله لقد اعجبتنى وما كشفت لها ثوبا، ثم لقينى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الغد فى السوق فقال: «ياسلمة هب لى المرأة لله أبوك» فقلت: هى لك يارسول الله فو الله ما كشفت لها ثوبا فبعث بها رسول الله ﷺ ففدى بها ناسا من المسلمين أسروا بمكة، ولايفادى بالاسير اذا أسلم وهو

بأيدينا لأنه لا يفيد الا اذا طابت نفسه وهو مأمون على اسلامه فيجوز لأنه يفيد تخليص مسلم من غير اضرار بمسلم آخر ، وأما المفاداة بمال فلا تجوز فى المشهور من مذهب الحنفية لما بين فى المفاداة بالمسلمين من ردهم حربا علينا . وفى السير الكبير أنه لا بأس به اذا كان بالمسلمين حاجة ، قيل: استدلالا بأسارى بدر فانه لا شك فى احتياج المسلمين بل فى شدة حاجتهم اذ ذاك فليكن محمل المفاداة الكائنة فى بدر بالمال ، وأما المن على الاسارى وهو أن يطلقهم الى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبى حنيفة . ومالك . وأحمد، وأجازه الامام الشافعى لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم من على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن أبى الربيع على ما ذكره ابن اسحق بسنده . وأبو داود من طريقه الى عائشة لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت بنت رسول الله صلى الله تعالى علية وسلم فى فداء أبى العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنائه عليها فلما رأى النبى ﷺ ذلك رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها و تردوا لها الذى لها » ففعلوا ذلك مغتبطين به ، ورواه الحاكم وصححه وزاد «وكان النبى ﷺ قد أخذ عليه أن يخلى زينب اليه ففعل » ومن ﷺ على ثمامة بن اثال بن النعمان الحنفى سيد أهل اليمامة ثم اسلم وحسن اسلامه ، وحديثه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، ويكفى ما ثبت فى صحيح البخارى من قوله عليه الصلاة والسلام: « لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى - يعنى أسارى بدر - لتركتهم له » فانه ﷺ أخبر وهو الصادق المصدوق بأنه يطلقهم لو سأله المطعم ، والاطلاق على ذلك التقدير لا يثبت الا وهو جائز شرعا لمكان العصمة ، وكونه لم يقع لعدم وقوع ماعلق عليه لاينفى جوازه شرعا * واستدل أيضا بالآية التى نحن فيها فان الله تعالى خير فيها بين المن والفداء ، والظاهر ان المراد بالمن الاطلاق مجانا ، وكون المراد المن عليهم بترك القتل وابقاءهم مسترقين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذمة خلاف الظاهر ، وبعض النفوس يجد طعم الالاء أحلى من هذا المن * وأجاب بعض الحنفية بأن الآية منسوخة بقوله تعالى : (اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) من سورة براءة فانه يقتضى عدم جواز المن وكذا عدم جواز الفداء وهى آخر سورة نزلت فى هذا الشأن ، وزعم أن ما وقع من المن والفداء انما كان فى قضية بدر وهى سابقة عليها وان كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضا قبل السورة *

والقول بالنسخ جاء عن ابن عباس . وقتادة . والضحاك . ومجاهد فى روايات ذكرها الجلال السيوطى فى الدر المنثور، وقال العلامة ابن الهمام : قد يقال إن ذلك - يعنى ما فى سورة براءة - فى حق غير الاسارى بدليل جواز الاسترقاق فيهم فيعلم ان القتل المأمور به فى حق غيرهم ، وما ذكره فى جواز الاسترقاق ليس على اطلاقه اذ لا يجوز كما علمت استرقاق مشركى العرب ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أى آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره ، قال الاعشى :

وأعددت للحرب أوزارها   رماحا طوالا وخيلا ذكورا
ومن نسج داود موضونة   تساق الى الحرب عيرا فعيرا

وهى فى الاصل الاحمال فاستعيرت لما ذكر استعارة تصريحية ، ويجوز أن يكون فى (الحرب) استعارة مكنية بأن تشبه بانسان يحمل حملا على رأسه أو ظهره ويثبت لها ما أثبت تخييلا ، وكلام الكشاف أميل

اليه ، وقيل : هى أحمال المحارب أضيفت للحرب تجوزا فى النسبة الاضافية وتغليبا لها على الكراع ، واسناد الوضع للحرب مجازى أيضا وليس بذاك . وعد بعض الاماثل الكلام تمثيلا ، والمراد حتى تنقضى الحرب وقال : يجوز أن يكون ارادة ذلك من باب المجاز المتفرع على الكناية كما فى قوله : *فألقت عصاها واستقر بها النوى * فانه كنى به عن انقضاء السفر والاقامة ، وقيل : الاوزار جمع وزر بمعنى إثم وهو هنا الشرك والمعاصى ، (وتضع) بمعنى تترك مجازا ، واسناده للحرب مجاز أو بتقدير مضاف ، والمعنى حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم ، وفيه أنه لا يستحسن اضافة الاوزار بمعنى الآثام الى الحرب ، و(حتى) عند الشافعى عليه الرحمة ومن قال نحو قوله : غاية للضرب ، والمعنى اضربوا أعناقهم حتى تنقضى الحرب ، وليس هذا بدلا من الاول ولا تاكيدا له بناء على ماقرروه من أن حتى الداخلة على اذا الشرطية ابتدائية أو غاية للشد أو للمن والفداء معا أو للمجموع من قوله تعالى : (فضرب الرقاب) الخ بمعنى أن هذه الاحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم ، وقيل : بنزول عيسى عليه السلام ، وروى ذلك عن سعيد بن جبير . والحسن ، وفى الحديث ما يؤيده . أخرج أحمد . والنسائى . وغيرهما عن سلمة ابن نفيل قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ اذ جاء رجل فقال: يارسول الله ان الخيل قد سيبت ووضع السلاح وزعم أقوام أن لا قتال وان قد وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « كذبوا فالآن جاء القتال ولا تزال طائفة من أمتى يقاتلون فى سبيل الله لا يضرهم من خالفهم يزيغ الله تعالى قلوب قوم ليرزقهم منهم وتقاتلون حتى تقوم الساعة ولا تزال الخيل معقودا فى نواصيها الخير حتى تقوم الساعة ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج» وهى عند من يقول: لا من ولا فداء اليوم غاية للمن والفداء إن حمل على الحرب على حرب بدر بجعل تعريفه للعهد ، والمعنى المن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها ، وغاية للضرب والشد إن حملت على الجنس، والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكة . ولا تجعل غاية للمن والفداء مع ارادة الجنس.

وفى زعم جوازه والتزام النسخ كلام فتأمل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الامر ذلك أو افعلوا ذلك فهو فى محل رفع خبر مبتدأ محذوف أو فى محل نصب مفعول لفعل كذلك ، والاشارة الى مادل عليه قوله تعالى : (فضرب الرقاب) الخ لا الى ما تقدم من أول السورة الى ههنا لأن افعلوا لا يقع على جميع السالف وعلى الرفع ينفك النظم الجليل ان لم يحمل عليه لأن ما بعد كلام فيهم ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق أو موت جارف ﴿ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ولكن أمركم سبحانه بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فينالوا الثواب ويخلد فى صحف الدهر ما لهم من الفضل الجسيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم عز وجل ببعض انتقامه سبحانه فيتعظ به بعض منهم ويكون سببا لاسلامه ؛ واللام متعلقة بالفعل المقدر الذى ذكرناه ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى استشهدوا.

وقرأ الجمهور (قاتلوا) أى جاهدوا ، والجحدرى بخلاف عنه (قتلوا) بفتح القاف والتاء بلا الف ، وزيد ابن ثابت . والحسن . وأبو رجاء . وعيسى . والجحدرى أيضا (قتلوا) بالبناء للمفعول وشد التاء.

﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ٤ ﴾ فلن يضيعها سبحانه ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه (يضل) مبنيا للمفعول (أعمالهم) بالرفع على النيابة عن الفاعل . وقرىء (يضل) بفتح الياء من ضل (أعمالهم) بالرفع على الفاعلية . والآية قال قتادة : كما أخرجه عنه ابن جرير . وابن أبي حاتم ذكر لنا أنها نزلت فى يوم أحد ورسول الله ﷺ فى الشعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ اعل هبل ونادى المسلمون الله أعلى وأجل فنادى المشركون يوم بيوم بدر وان الحرب سجال لنا عزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ : « الله مولانا ولا مولى لكم إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء مرزوقون وأما قتلاكم ففى النار يعذبون » ومنه يعلم وجه قراءة (قتلوا) بصيغة التفعيل ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ سيوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المقيم والفضل العظيم ، وهذا كالبيان لقوله سبحانه : (فلن يضل أعمالهم) أو سيثبت جل شأنه فى الدنيا هدايتهم ، والمراد الوعد بأن يحفظهم سبحانه ويصونهم عما يورث الضلال وحبط الأعمال ، وهو كالتعليل لذلك ، ويجوز أن يكون كالبيان له أيضا ٭

﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ٥ ﴾ أى شأنهم ، قال الطبرسي: المراد إصلاح ذلك فى العقبى فلا يتكرر مع ما تقدم لأن المراد به اصلاح شأنهم فى الدين والدنيا فلا تغفل ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ٦ ﴾ فى موضع الحال بتقدير قد أو بدونه أو استئناف كما قال أبو البقاء ، والتعريف فى الآخرة . أخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن مجاهد أنه قال : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يخطؤن كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا ، وفى الحديث « لأحدكم بمنزله فى الجنة أعرف منه بمنزله فى الدنيا » وذلك بإلهام منه عز وجل ، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال : بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمل الشخص فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ويتبعه الشخص حتى يأتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شىء أعطاه الله تعالى فى الجنة فاذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ٭

وورد فى بعض الآثار أن حسناته تكون دليلا له إلى منزله فيها ، وقيل : إنه تعالى رسم على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع من التعريف ، وقيل : تعريفها تحديدها يقال : عرف الدار وأرفها أى حددها أى حددها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة ، وقيل : أى شرفها لهم ورفعها وعلاها على أن عرفها من الأعراف التى هى الجبال وما أشبهها ، وعن ابن عباس فى رواية عطاء . وروى عن مؤرج أى طيبها لهم على أنه من العرف وهو الريح الطيبة ههنا ، ومنه طعام معرف أى مطيب ، وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل ، وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا وهو بذكر أوصافها ، والمراد أنه تعالى لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها فاجتهدوا فيما يوصلهم إليها ٭ والأذن تعشق قبل العين أحيانا ٭ وعلى هذا المراد قيل :

اشتاقه من قبل رؤيته كما تهوى الجنان بطيب الأخبار

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ ﴾ أى دينه ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم لا على أن الكلام على تقدير مضاف بل على أن نصرة الله فيه تجوز فى النسبة فنصرته سبحانه نصرة رسوله ودينه إذ هو جل شأنه وعلا المعين الناصر وغيره سبحانه المعان المنصور ﴿ يَنْصُرْكُمْ ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٧ ﴾ فى مواطن الحرب ومواقفها أو على محجة الاسلام ، والمراد يقويكم أو يوفقكم للدوام على الطاعة ٭

وقرأ المفضل عن عاصم (ويثبت) مخففا ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ ﴾ من تعس الرجل بفتح العين تعسا أى سقط على وجهه، وضده انتعش أى قام من سقوطه ، وقال شمر . وابن شميل . وأبو الهيثم . وغيرهم : تعس بكسر العين ، ويقال : تعسا له ونكسا على أن الأول - كما قال ابن السكيت - بمعنى السقوط على الوجه والثانى بمعنى السقوط على الرأس ، وقال الحمصى فى حواشيه على التصريح : تعس تعسا أى لا انتعش من عثرته ونكسا بضم النون وقد تفتح اما فى لغة قليلة واما اتباعا لتعسا، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويراد بذلك الدعاء ، وكثر فى الدعاء على العاثر تعسا له، وفى الدعاء له لعا له أى انتعاشا وإقامة، وأنشدوا قول الاعشى يصف ناقة :

كلفت مجهولة نفسى وشايعنى همى عليهـا إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن أقول لعا

وقال ثعلب . وابن السكيت أيضا التعس الهلاك ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستنى يا مجمع

وفى القاموس التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط والفعل كمنع وسمع أو إذا خاطبت قلت : تعست كمنع وإذا حكيت قلت : تعس كسمع ، ويقال : تعسه الله تعالى وأتعسه ورجل تاعس وتعس، وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب اضماره لأنه للدعاء كسقيا ورعيا فيجرى مجرى الامثال إذا قصد به ذلك ، والجار والمجرور بعده متعلق بمقدر للتبيين عند كثير أى أعنى له مثلا فنحو تعسا له جملتان * وذهب الكوفيون الى أنه كلام واحد ، ولابن هشام كلام فى هذا الجار مذكور فى بحث لام التبيين فلينظر هناك *

واختلفت العبارات فى تفسير ما فى الآية الكريمة ، فقال ابن عباس : أى بعدا لهم . وابن جريج . والسدى أى حزنا لهم ، والحسن أى شتما لهم ، وابن زيد أى شقاء لهم ، والضحاك أى رغما لهم ، وحكى النقاش تفسيره بقبحا لهم ، وقال غير واحد : أى عثورا وانحطاطا لهم، وما ألطف ذكر ذلك فى حقهم بعد ذكر تثبيت الاقدام فى حق المؤمنين ، وفى رواية عن ابن عباس يريد فى الدنيا القتل وفى الآخرة التردى فى النار ، وأكثر الاقوال ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك *

وجوز الزمخشرى فى اعرابه وجهين . الاول كونه مفعولا مطلقا لفعل محذوف كما تقدم . والثانى مفعولا به لمحذوف أى فقضى تعسا لهم ، وقدر على الأول القول أى فقال : تعسا لهم، والذى دعاه لذلك على ماقيل جعل (الذين) مبتدأ والجملة المقرونة بالفاء خبرا له وهى لانشاء الدعاء والانشاء لايقع خبرا بدون تأويل، فاما أن يقدر معها قول أو تجعل خبرا بتقدير قضى ، وجعل قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ٨ ﴾ عطفا على ماقدر *

وفى الكشف المراد من قال : تعسا لهم أهلكهم الله لا ان ثم دعاء وقولا ، وذلك لأنه لا يدعى على شخص الا وهو مستحق له فاذا أخبر تعالى أنه يدعو عليه دل على تحقق الهلاك لاسيما وظاهر اللفظ ان الدعاء منه عز وجل، وهذا مجاز على مجاز أعنى أن القول مجاز وكذلك الدعاء بالتعس ، ولم يجعل العطف على (تعسا) لأنه دعاء، و(أضل) اخبار، ولو جعل دعاء أيضا عطفا على (تعسا) على التجوز المذكور لكان له وجه انتهى * وأنت تعلم أن اعتبار ما اعتبره الزمخشرى ليس لأجل أمر العطف فقط بل لأجل أمر الخبرية أيضا ، فان قيل بصحة الاخبار بالجملة الانشائية من غير تأويل استغنى عما قاله بالكلية ، ودخلت الفاء فى خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط *

وجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على المفعولية لفعل مقدر يفسره الناصب لتعسا. أى اتعس الله الذين كفروا او تعس الله الذين كفروا تعسا لما سمعت عن القاموس وقد حكى أيضا عن أبى عبيدة ، والفاء زائدة فى الكلام كما فى قوله تعالى : (وربك فكبر) ويزيدها العرب فى مثل ذلك على توهم الشرط ، وقيل: يقدر الفعل مضارعا معطوفا على قوله تعالى : (يثبت) أى ويتعس الذين الخ. والفاء للعطف فالمراد اتعاس بعد اتعاس ، ونظيره قوله تعالى : (واياى فارهبون) او لأن حق المفسر أن يذكر عقب المفسر كالتفصيل بعد الاجمال ، وفيه مقال ه

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اى ماذكر من التعس والاضلال ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الاحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الامارة بالسوء ، وهذا تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن للتعس والاضلال إذ قد علم من قوله تعالى : (والذين كفروا) الخ سببية مطلق الكفر الداخل فيه الكفر بالقرآن دخولا أوليا لذلك ﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ لأجل ذلك ﴿ أَعْمَالَهُمْ ٩ ﴾ التى لو كانوا عملوها مع الايمان لأثيبوا عليها ، وذكر الاحباط مع ذكر الاضلال المراد هو منه اشعارا بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى أقعدوا فى أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الامم المكذبة فان آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم ، وقوله تعالى: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ استئناف بيانى كأنه قيل: كيف كانت عاقبتهم؟ فقيل: أهلك ما يختص بهم من النفس والاهل والمال يقال: دمره اهلكه ودمر عليه اهلك مايختص به فدمر عليه ابلغ من دمره ، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيا منسيا والاتيان بكلمة الاستعلاء وهى لتضمن التدمير معنى الايقاع أو الهجوم أو نحوه ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أى لهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم ﴿ أَمْثَالُهَا ١٠ ﴾ أمثال عاقبتهم أو عقوبتهم لدلالة ما سبق عليها لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله ، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الامم المعذبة ، وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الاولين وقد قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم ، والقتل بيد المثل أشد من الهلاك بسبب عام ، وقيل : المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل : دمر الله تعالى عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عاقبة أو عقوبة الامم السالفة لهؤلاء ، وقيل : اشارة الى النصر وهو كما ترى ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى ناصرهم على أعدائهم ، وقرىء (ولى الذين آمنوا) ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ١١ ﴾ فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) لأن المولى هناك بمعنى المالك فلم يتوارد النفى والاثبات على معنى واحد ه

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الاخروية ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ أى ينتفعون بمتاع الدنيا أياما قلائل ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ الكاف فى موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما

يقول سيبويه أي يأكلونه أي الأكل مشبها أكل الانعام ، وإما على أنه نعت لمصدر محذوف كما يقول أكثر المعربين أي أكلا مثل اكل الانعام ، والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر كما تقول للجاهل تعيش كما تعيش البهيمة لاتريد التشبيه فى مطلق العيش ولكن فى خواصه ولوازمه، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم، وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ١٢ ﴾ أى موضع إقامة لهم، حال مقدر من واو (يأكلون)؛ وجوز أن يكون استئنافا وكان قوله تعالى: (يتمتعون ويأكلون) فى مقابلة قوله سبحانه: (وعملوا الصالحات) لما فيه من الايماء الى أنهم عرفوا أن نعيم الدنيا خيال باطل وظل زائل ، فتركوا الشهوات وتفرغوا للصالحات، فكان عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم وهؤلاء غفلوا عن ذلك فرتعوا فى دمنهم كالبهائم حتى ساقهم الخذلان الى مقرهم من درك النيران ، وهذا ماذكره العلامة الطيبي فى بيان التقابل بين الآيتين ، وقال بعض الاجلة : فى الكلام احتباك وذلك أنه ذكر الاعمال الصالحة ودخول الجنة أولا دليلا على حذف الاعمال الفاسدة ودخول النار ثانيا وذكر التمتع والمثوى ثانيا دليلا على حذف التقلل والمأوى أولا والاول أحسن وأدق، وأسند ادخال الجنة الى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا المسلك فى قوله تعالى : (والنار مثوى لهم) وخولف بين الجملتين فعلية واسمية للايذان بسبق الرحمة والاعلام بمصير المؤمنين والوعد بأن عاقبتهم أن الله سبحانه يدخلهم جنات وأن الكافرين مثواهم النار وهم الآن حاضرون فيها ولا يدرون وكالبهائم يأكلون ﴿

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ بمعنى كم الخبرية وهى مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ تمييزها ، وقوله سبحانه : ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لقرية كما أن قوله عزوجل : ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لقريتك ، وقد حذف عنهما المضاف وأجرى أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذى هو قوله تعالى : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أى وكم من أهل قرية هم اشد قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواع العذاب ، وجوز أن لايكون هناك حذف وإنما أطلق المحل واريد الحال مجازا ، واسناد الاخراج إلى أهل قريته ﷺ وهى مكة المكرمة مجاز من باب الاسناد إلى السبب لأنهم عاملوه صلى الله تعالى عليه وسلم بما عاملوه فكانوا بذلك سببا لاخراجه حين أذن الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بالهجرة منها ، ونظير ذلك أقدمنى بلدك حق لى عليك . وأنت تعلم أنه على ما حققه الاجلة يحتمل أوجها ثلاثة . مجازا فى الاسناد إذا كان الاقدام مستعملا فى معناه الذى وضع له وإن كان موهوما . ومجازا فى الطرف إذا كان مستعملا فى معنى الحمل على القدوم . واستعارة بالكناية إن كان الحق مستعملا فى المقدم ، والشيخ يقول فى مثل ذلك: إن الفعل المتعدى موهوم لا فاعل له ليصير الاسناد اليه حقيقة فلا اقدام مثلا فى قصد المتكلم وإنما هو تصوير القدوم بصورة الاقدام ، وإسناده إلى الحق المصور بصورة المقدم مبالغة فى كونه داعيا للقدوم ، وارتضاه السالكوتى فى حواشى شرح مختصر التلخيص وذب عنه القال والقيل ، وتمام الكلام هناك ، والكلام فى الآية على طرز ذاك ، ووصف القرية الاولى بشدة القوة للايذان بأولوية الثانية منها بالاهلاك لضعف قوتها كما أن وصف الثانية باخراجه عليه الصلاة والسلام للايذان بأولوية تهابه لقوة جنايتها ، وعلى طريقته قول النابغة :

كليب لعمري كان أكثر ناصرا وأيسر جرما منك ضرج بالدم

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٣ ﴾ بيان لعدم خلاصهم بواسطة الاعوان والانصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وهو حكاية حال ماضية كما في قوله تعالى: (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ولا نسلم أن اسم الفاعل إذا لم يعمل حقيقة في الماضي، والآية تسلية له ﷺ، فقد أخرج عبد بن حميد. وأبو يعلى. وابن جرير. وابن أبي حاتم. وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأنت أحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك» فأعدى الاعداء من عدا على الله تعالى في حرمه أو قتل غير قاتله أو قتل بدخول أهل الجاهلية فأنزل الله سبحانه (وكأين من قرية) الخ، وقد تقدم ما يتعلق بذلك أول السورة فتذكر *

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين وكون الاولين في أعلى عليين والآخرين في أسفل سافلين وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال، والهمزة لانكار استوائهما أو لانكار كون الامر ليس كما ذكر، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرئ بدونها، و(من) عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين كما أنها في قوله تعالى: ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ عبارة عن اضدادهم من المشركين *

وأخرج جماعة عن ابن عباس أن (من كان على بينة من ربه) هو رسول الله ﷺ و(من زين له سوء عمله) هم المشركون، وروى عن قتادة نحوه واليه ذهب الزمخشري. وتعقب بأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي اليه، قيل: ومثله كون (من) الأولى عبارة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم وعن المؤمنين، والمعنى أيستوي الفريقان أو أليس الامر كما ذكر فمن كان ثابتاً على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحجج العقلية كمن زين له الشيطان عمله السيء من الشرك وسائر المعاصي كاخراجك من قريتك مع كون ذلك في نفسه أقبح القبائح ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ في ذلك العمل السيء، وقيل: بسبب ذلك التزيين ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ١٤ ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ماهم عليه فضلا عن حجة تدل عليها. وجمع الضميرين الاخيرين باعتبار معنى (من) كما أن افراد الأولين باعتبار لفظها ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ إلى آخره استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفا للمؤمنين وبيان كيفية انهارها التي اشير إلى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين ايذانا بأن الايمان والعمل الصالح من باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات وترك السيآت، والمثل الوصف العجيب الشأن وهو مبتدا باتفاق المعربين، واختلف في خبره فقيل محذوف فقال النضر بن شميل: تقديره ما تسمعون، وقوله عز وجل: ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ إلى آخره مفسر له، وقال سيبويه: تقديره فيما يتلى عليكم او فيما قصصنا عليك ويقدر مقدما (وفيها انهار) الخ بيان لذلك المثل، وقدره ابن عطية ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف وليس بذاك، ولعل الانسب بصدر النظم الكريم تقدير النضر، وقيل: هو مذكور فقيل هو قوله تعالى: (فيها أنهار) الخ على معنى مثل الجنة وصفتها مضمون هذا الكلام ولا يحتاج مثل هذا الخبر إلى رابط *

وقيل هذه الجملة هي الخبر الا ان لفظ (مثل) زائد زيادة اسم في قول من قال: ٭ الى الحول ثم اسم السلام عليكما ٭ فالمبتدأ في الحقيقة هو المضاف اليه فكأنه قيل: الجنة فيها أنهار الخ وليس بشيء، وقيل: الخبر قوله تعالى الآتي:

(كمن هو خالد فى النار) وسيأتى ان شاء الله تعالى بسط الكلام فيه . وقرأ على كرم الله تعالى وجهه · وابن عباس. وعبدالله. والسلمى (أمثال الجنة) أى صفاتها، قال ابن جنى: وهذا دليل على أن قراءة العامة بالتوحيد معناها الكثرة لما فى مثل من معنى المصدرية ولذا جاز مررت برجل مثل رجلين وبرجلين مثل رجال وبامرأة مثل رجل، وعن على كرم الله تعالى وجهه أيضا انه قرىء (مثال الجنة) ومثال الشىء فى الاصل نظيره الذى يقابل به *

﴿ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ أى غير متغير الطعم والريح لطول مكث ونحوه، وماضيه أسن بالفتح من باب ضرب ونصر وبالكسر من باب علم حكى ذلك الخفاجى عن اهل اللغة · وفى البحر أسن الماء تغير ريحه يأسن ويأسن ذكره ثعلب فى الفصيح ، والمصدر أسون، وأسن بكسر السين يأسن بفتحها لغة أسنا قاله اليزيدى، وأسن الرجل بالكسر لا غير اذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة منها فغشى عليه أو دار رأسه ومنه قول الشاعر :

قد أترك القرن مصفرا أنامله يميد فى الريح ميد المائح الاسن

وقرأ ابن كثير · وأهل مكة (أسن) على وزن حذر فهو صفة مشبهة أو صيغة مبالغة ، وقرأ (يسن) بالياء قال أبو على : وذلك على تخفيف الهمزة ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ لم يحمض ولم يصر قارصا ولا حاذرا كألبان الدنيا وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذة لهم ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا فانها لا لذة فى نفس شربها وفيها من المكاره والغوائل ما فيها وهى صفة مشبهة مؤنث لذ وصفت بها الخمر لأنها مؤنثة وقد تذكر أو مصدر نعت به بتقدير مضاف أو بجعلها عين اللذة مبالغة على ما هو المعروف فى أمثال ذلك ، وقرئت بالرفع على أنها صفة (أنهار) وبالنصب على انها مفعول له أى كائنة لأجل اللذة لا لشىء آخر من الصداع وسائر آفات خمور الدنيا ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ مما يخالفه فلا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها، ووصفه بمصفى لأن الغالب على العسل التذكير وهو مما يذكر ويؤنث كما نص عليه أبو حيان. وغيره ، وهذا على ما قيل تمثيل لما يجرى مجرى الا شربة فى الجنة بانواع ما يستطاب منها أو يستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينقصها و ينغصها والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها *

وبدىء بالماء لأنه فى الدنيا مما لا يستغنى عنه ثم باللبن اذ كان يجرى مجرى المطعم لكثير من العرب فى كثير من أوقاتهم ثم بالخمر لأنه اذا حصل الرى والمطعوم تشوفت النفس الى ما يلتذ به ثم بالعسل لأن فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتبة ، وجاء عن ابن عباس أن لبن تلك الانهار لم يحلب ، وقال سعيد بن جبير: انه لم يخرج من بين فرث ودم وان خمرها لم تدسها الرجال بارجلها وان عسلها لم يخرج من بطون النحل . وأخرج ابن جرير عن سعد قال: سالت أبا اسحق عن قوله تعالى: (من ماء غير آسن) فقال: سالت عنه الحرث فحدثنى ان ذلك الماء تسنيم وقال بلغنى: انه لا تمسه يد وانه يجىء الماء هكذا حتى يدخل الفم *

وفى حديث أخرجه ابن مردويه عن الكلبى ان نهر دجلة نهر الخمر فى الجنة وأن عليه ابراهيم عليه السلام ونهر جيحون نهر الماء فيها و يقال له نهر الرب ونهر الفرات نهر اللبن وانه لذرية المؤمنين ونهر النيل نهر العسل *

وأخرج الحرث بن أبى اسامة فى مسنده. والبيهقى عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة · وأنت تعلم ان المذكور فى الآية لكل انهار بالجمع والله تعالى اعلم بصحة هذه الاخبار ونحوها ، ثم انها ان صحت لا يبعد تأويلها وان كانت القدرة الالهية

لا يتعاصاها شيء ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذكر من فنون الانهار ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى انواع من كل الثمرات فالجار والمجرور صفة مبتدأ مقدر وقدره بعضهم زوجان وكأنه انتزعه من قوله تعالى: (فيهما من كل فاكهة زوجان) وقيل: (من) زائدة أي ولهم فيها كل الثمرات ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ مبتدأ خبره محذوف والجملة عطف على الجملة السابقة اى ولهم مغفرة ، وجوز ان يكون عطفا على المبتدأ قبل بدون قيد فيها لأن المغفرة قبل دخول الجنة أو بالقيد والكلام على حذف مضاف أى ونعيم مغفرة أو جعل المغفرة عبارة عن اثرها وهو النعيم أو مجازا عن رضوان الله عز وجل، وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتتنغص لذتهم والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها وحينئذ العطف على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر، وقد رأيت نحو هذا بعد كتابته للطبرسي مقتصرا عليه ولعله أولى مما قالوه، وتنوين (مغفرة) للتعظيم أى مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها ، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق بمحذوف صفة لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة من ربهم، وقوله عز وجل: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى: (والنار مثوى) لهم، وجوز أن يكون بدلا من قوله سبحانه: (كمن زين له سوء عمله) وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة فى الآخرة تقريرا لانكار المساواة وفيه بعد . وذهب جار الله الى أنه خبر (مثل الجنة) وأن ذاك مرتب على الانكار السابق أعنى قوله تعالى: (أفمن كان) الخ ، والمعنى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار فالمضافان محذوفان الجزاء بقرينة مقابلة الجنة ولفظ المثل بقرينة تقدمه ومثله كثير ، وفائدة التعرية عن حرف الانكار ان من اشتبه عليه الاول أعنى حال المتمسك بالبينة وحال التابع لهواه فالثانى مثله عنده واذ ذاك لا يستحق الخطاب، ونظير ذلك قول حضرمى بن عامر :

أفرح ان ارزأ الكرام وان أورث ذودا شصائصا نبلا

فانه كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه من حرف الانكار لانطوائه تحت حكم من قال له : أتفرح بموت أخيك وبوراثة ابله وذلك من التسليم الذى يقل تحته كل انكار ، وجعل قوله تعالى : (فيها أنهار) كالتكرير للصلة أى صلة بعد صلة يتضمن تفصيلها لأنه كالتفصيل للموعود، ولهذا لم يتخال العاطف بينهما ، وجوز أن يكون فى موضع الحال على أن الظرف فى موضع ذلك و(أنهار) فاعله لا على أنه مبتدأ والظرف خبر مقدم والجملة الاسمية حال لعدم الواو فيها، وقد صرحوا بأن الاكتفاء فيها بالضمير غير فصيح ، واعتبارها فعلية بتقدير متعلق الظرف استقر لا يخفى حاله ، وقيل : فى الحال ضعف من حيث المعنى لمجيئه مجيء الفضلات وهى أم الانكار ، وأيضا هو حال من الجنة لا من ضميرها فى الصلة وفى العامل تكلف، ثم الحال غير مقيدة وجعلها مؤكدة وقد علم كونها كذلك من إخباره تعالى فيه أيضا تكلف، وان يكون خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف بيانى، قال فى الكشف: وهو الوجه، والتقدير هى فيها أنهار وكأنه قيل: أنى يكون صفة الجنة وهى كذا و كذا كصفة النار فالاستئناف ههنا بمنزلة قولك: وهى كذا وكذا اعتراضا لما فى لفظ المثل من الاشعار بالوصف العجيب، وليس خبر الجملة السابقة (وهو كمن هو

خالد في النار) مورد السؤال ليعترض بوقوع الاستئناف قبل مضيه . وأورد أنه لا حاجة الى تقدير المبتدأ الآن (فيها أنهار) جملة برأسها ، والجواب أن التقدير مثلها فيها أنهار فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فصار مرفوعا ثم حذف ولهذا قال: في السؤال كأن قائلا قال: وما مثلها؟ ويجرى ماقرر في قراءة الامير كرم الله تعالى وجهه ومن معه (أمثال) بالجمع فيقال: التقدير أمثال الجنة كامثال جزاء من هو خالد في النار ، ويقدر المضاف الأول جمعا للمطابقة، ولعمرى لقد أبعد جار الله المغزى، وقد استحسن ماذكره كثير من المحققين قال صاحب الكشف بعد تقرير جعل (كمن هو خالد) خبر لمثل الجنة :هذا هو الوجه اللائح المناسب للمساق.

وقال ابن المنير : في الانتصاف بعد نقله كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها لا يعوزها الا التنبيه على أن في الكلام محذوفا ليتعادل، والتقدير مثل ساكن الجنة كمن هو خالد في النار ،ومن هذا النمط قوله تعالى: (اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) الخ، وماقدرناه لتحصيل التعادل أولى وإن كان فيه كثرة حذف فتامل ذاك والله تعالى يتولى هداك، والضمير المفرد أعنى (هو) راجع الى (من) باعتبار لفظها كما ان ضمير الجمع في قوله سبحانه: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً ﴾ راجع اليها باعتبار معناها ، والمراد وسقوا ماء حارا مكان تلك الاشربة وفيه تهكم بهم ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ١٥ ﴾ من فرط الحرارة.

روى أنه إذا أدني منهم شوى وجوههم وامتازت فروة رؤسهم فاذا شربوه قطع أمعاءهم، وهي جمع معى بالفتح والكسر ماينتقل الطعام اليه بعد المعدة ويقال له عفاج وهو مذكر وقد يؤنث ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ هم المنافقون، وافراد الضمير باعتبار اللفظ كما ان جمعه بعد باعتبار المعنى، قال ابن جريج: كانوا يحضرون مجالس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي لأولي العلم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقيل: هم الواعون لكلامه عليه الصلاة والسلام الراعون له حق رعايته من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ أي ما الذي قال قبيل هذا الوقت ومقصودهم من ذلك الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام، وجوز أن يكون مرادهم حقيقة الاستعلام إذ لم يلقوا له آذانهم تهاونا به ولذلك ذموا والاول أولى ، قيل: قالوا ذلك لابن مسعود، وعن ابن عباس انا منهم وقد سميت فيمن سئل وأراد رضي الله تعالى عنه أنه من الذين أوتوا العلم بنص القرآن ، وما أحسن ماعبر عن ذلك، و(آنفا) اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له فعل ثلاثي بل استأنف وأتنف، وذكر الزجاج أنه من استأنفت الشيء اذا ابتدأته وكان أصل معنى هذا أخذت أنفه أي مبدأه، وأصل الانف الجارحة المعروفة ثم يسمى به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه ، وذكر غير واحد أن آنفا من ذلك قالوا: إنه اسم للساعة التي قبل ساعتك التي أنت فيها من الانف بمعنى المتقدم وقد استعير من الجارحة لتقدمها على الوقت الحاضر، وقيل: هو بمعنى زمان الحال ، وهو على ماذهب اليه الزمخشري نصب على الظرفية ولا ينافي كونه اسم فاعل كما في بادىء فانه اسم فاعل غلب على معنى الظرفية في الاستعمال، وقال أبو حيان: الصحيح أنه ليس بظرف ولا نعلم أحدا من النحاة عده في الظروف وأوجب نصبه على الحال من فاعل (قال) أي ماذا قال مبتدئا أي ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه، وإلى ذلك يشير كلام الراغب. وقرأ ابن كثير (أنفا) على وزن فعل ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر

﴿ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فعدم توجههم نحو الخير ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ١٦ ﴾ فتوجهوا نحو كل مالا خير فيه فلذلك كان منهم ما كان ٭

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ الى طريق الحق ﴿ زَادَهُمْ ﴾ أى الله عز وجل ﴿ هُدًى ﴾ بالتوفيق والالهام، والموصول يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بفعل محذوف يفسره المذكور و (هدى) مفعول ثان لأن زاد قد يتعدى لمفعولين ، ويحتمل أن يكون تمييزاً والاول هو الظاهر ، وتنوينه للتعظيم أى هدى عظيما ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ١٧ ﴾ اى أعطاهم تقواهم إياه جل شأنه بأن خلقها فيهم بناء على مايقوله الاشاعرة فى أفعال العباد أو بأن خلق فيهم قدرة عليها مؤثرة فى فعلها باذنه سبحانه على مانسبه الكوراني الى الاشعرى وسائر المحققين فى أفعال العباد من أنها بقدرة خلقها الله تعالى فيهم مؤثرة باذنه تعالى ، وقول بعضهم: بان جعلهم جل شانه متقين له سبحانه يمكن تطبيقه على كل من القولين، وقال البيضاوى: أى بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها فالايتاء عنده مجاز عن البيان أو الاعانة أو هو على حقيقته والتقوى مجاز عن جزائها لأنها سببه أو فيه مضاف مقدر وليس فى شيء من ذلك ما يأباه مذهب أهل الحق ، وذكر الزمخشرى الثانى والثالث من ذلك، واختار الطيبي الاول من هذين الاثنين وقال: هو أوفق لتأليف النظم الكريم لأن أغلب آيات هذه السورة الكريمة روعى فيها التقابل فقوبل (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) بقوله سبحانه: (والذين اهتدوا زادهم هدى) لأن الطبع يحصل من تزايد الرين وترادف مايزيد فى الكفر، وقوله تعالى (واتبعوا أهواءهم) بقوله جل وعلا: (وآتاهم تقواهم) فيحمل على كمال التقوى وهو أن يتنزه العارف عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه سبحانه بشراشره وهو التقوى الحقيقية المعنية بقوله تعالى: (اتقوا الله حق تقاته) فان المزيد على مزيد الهدى مزيد لا مزيد عليه، وفى الترفع عن متابعة الهوى النزوع إلى المولى والعزوب عن شهوات الحياة الدنيا، ثم فى اسناد ايتاء التقوى اليه تعالى واسناد متابعة الهوى اليهم إيماء إلى معنى قوله تعالى حكاية: (وإذا مرضت فهو يشفين) وتلويح إلى أن متابعة الهوى مرض روحانى وملازمة التقوى دواء الهى انتهى ٭ وماذكره من التقابل جار فيما ذكرناه أيضا، وكذا يجرى التقابل على تفسير ايتاء التقوى ببيان ما يتقون لاشعار الكلام عليه بأن ماهم فيه ليس من ارتكاب الهوى والتشهى بل هو أمر حق مبنى على اساس قوى، وتفسير ذلك باعطاء جزاء التقوى مروى عن سعيد بن جبير وذهب اليه الجبائى، والكلام عليه أفيد وأبعد عن التأكيد من غير حاجة إلى حمل التقوى على اعلى مراتبها، وأمر التقابل هين فانه قد يقال: ان قوله تعالى (اهتدوا) فى مقابلة (اتبعوا أهواءهم) وقوله سبحانه: (زادهم هدى) فى مقابلة (طبع الله على قلوبهم) فليتدبر، وقيل: فاعل (زادهم) ضمير قوله ﷺ المفهوم من قوله تعالى (ومنهم من يستمع اليك) وقوله سبحانه: (ماذا قال آنفا) وكذا فاعل (آتاهم) أى أعانهم أو بين لهم، والاسناد مجازى، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر، وأيضا إذا كان قوله تعالى: (زادهم هدى) فى مقابلة قوله سبحانه: (طبع الله على قلوبهم) فالاولى أن يتحد فاعله مع فاعله ويجرى نحو ذلك على ماقاله الطيبي لئلا يلزم التفكيك، وجوز أن يكون ضميرا عائداً على قول المنافقين فان ذلك مما يعجب منه المؤمن فيحمد الله تعالى على ايمانه ويزيد بصيرة فى دينه، وهو بعيد جدا بل لا يكاد يلتفت اليه ٭

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ أى القيامة، وقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى تباغتهم بغتة وهي المفاجأة بدل

اشتمال من الساعة أى لا يتذكرون بأحوال الامم الخالية ولا بالاخبار باتيان الساعة ومافيها من عظائم الاحوال فما ينتظرون للتذكر الا اتيان الساعة نفسها ، وقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى علاماتها وأماراتها كما فى قوله أبى الاسود الدؤلى :

فان كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشراط أوله تبدو

وهى جمع شرط بالتحريك تعليل لمفاجأتها على معنى أنه لم يبق من الامور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى اتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من مبادى اتيانها فيكون اتيانها بطريق المفاجأة لامحالة كذا فى ارشاد العقل السليم ، وظاهر كلام الكشاف أنه تعليل للاتيان مطلقا أى ماينتظرون الا اتيان الساعة لأنه قد جاء اشراطها وبعد مجيئها لابد من وقوع الساعة ، وتعليل المقيد دون قيده لايخلو عن بعد ، قيل: ويقربه هنا أن انتظارهم ليس الا لاتيان الساعة وتقييده ببغتة ليس الا لبيان الواقع ، وقال بعض المحققين: هو تعليل لانتظار الساعة لأن ظهور امارات الشىء سبب لانتظاره ، وفى جعله تعليلا للمفاجأة خفاء لأنها لا تناسب مجىء الاشراط الا بتأويل ، وأنت تعلم أن البدل هو المقصود فالانتظار لاتيان الساعة بغتة فالتعليل المذكور تعليل للمقيد دون قيده أيضاً فكان ما فى الارشاد متعين وإن كان فيه نوع تأويل ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ١٨ ﴾ على ماأفاده بعض الاجلة تعجيب من نفع الذكرى عند مجىء الساعة وإنكار لعدم تشمرهم لها ولا نتظارهم اياها هزؤاً وجحوداً ، وفى الارشاد وقوله تعالى: (فانى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى اتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله سبحانه : (يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى) أى فكيف لهم ذكراهم على أن (أنى) خبر مقدم و(ذكراهم) مبتدأ و(اذا جاءتهم) اعتراض وسط بينهما رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها ، واطلاق المجىء عن قيد البغتة لما أن مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئها مطلقاً لامقيداً بقيد البغتة ، وقيل : (أنى) خبر مقدم لمبتدأ محذوف أى فانى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما يخبرون به فينكرونه منوطة بالعذاب ولايخفى حاله ، وقرأ أبو جعفر الرؤاسى عن أهل مكة (إن تأتهم) على أنه شرط مستأنف جزاؤه (فأنى لهم) الخ أى ان تأتهم الساعة بغتة إذ قد جاء أشراطها فأنى تنفعهم الذكرى وقت مجيئها ، (وإن) هنا بمعنى إذا لأن اتيان الساعة متيقن ، ولعل الاتيان بها للتعريض بهم وأنهم فى ريب منها أو لانها لعدم تعيين زمانها أشبهت المشكوك فيه وإذا جاءتهم باعتبار الواقع فلا تعارض بينهما كما يتوهم فى النظرة الحمقاء *

وفى الكشف (إذا) على هذه القراءة لمجرد الظرفية لئلا يلزم التمانع بين (إذا جاءتهم) و(إن تأتهم) وفى الاتيان بأن مع الجزم بالوقوع تقوية أمر التوبيخ والانكار كما لايخفى انتهى ، وعلى ماذكرنا لايحتاج إلى جعل إذا لمجرد الظرفية *

وقرأ الجعفى وهرون عن ابى عمرو (بغتة) بفتح الغين وشد التاء ، قال صاحب اللوامح: وهى صفة وانتصابها على الحال ولا نظير لها فى المصادر ولا فى الصفات بل فى الاسماء نحو الجربة وهى القطيع من حمر الوحش ، وقد يسمى الاقوياء من الناس اذا كانوا جماعة متساوين جربة ، والشربة وهى اسم موضع وكذا قال أبو العباس ابن الحاج من أصحاب أبى على الشلوبين فى كتابه المصادر ، وقال الزمخشرى: وما أخوفنى أن تكون غلطة من الراوى عن أبى عمرو وان يكون الصواب بغتة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم *

وتعقبه أبو حيان بان هذا على عادته فى تغليط الرواة ، والظاهر ان المراد بأشراط الساعة هنا علاماتها التى كانت واقعة

اذ ذاك واخبروا انها علامات لها كبعثة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد أخرج أحمد. والبخارى . ومسلم. والترمذى عن أنس قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين واشار بالسبابة والوسطى» وأراد عليه الصلاة والسلام مزيد القرب بين مبعثه والساعة فان السبابة تقرب من الوسطى طولا فينا وهكذا فيه صلى الله تعالى عليه وسلم. وزعم بعضهم أن امر الطول والقصر فى وسطاه وسبابته عليه الصلاة والسلام على عكس ما فينا خطأ لا يلتفت اليه الا ان يكون أراد ذلك فى اصابع رجليه الشريفة صلى الله تعالى عليه وسلم *

وأخرج أحمد عن بريدة رضى الله تعالى عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول بعثت أنا والساعة جميعا وإن كادت لتسبقنى» وهذا أبلغ فى افادة القرب وعدوا منها انشقاق القمر الذى وقع له ﷺ والدخان الذى وقع لاهل مكة وأما أشراطها مطلقا فكثيرة الفت فيها كتب مختصرة ومطولة وهى تنقسم الى مضيقة لا تبقى الدنيا بعد وقوعها الا أيسر يسير كخروج المهدى رضى الله تعالى عنه على مايقول أهل السنة دون مايقوله الشيعة القائلون بالرجعة فان الدنيا عندهم بعد ظهوره تبقى مدة معتدا بها وكنزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وغير ذلك، وغير مضيقة وهى أكثر الاشراط ككون الحفاة الرعاة رؤس الناس وتطاولهم فى البنيان وفشو الغيبة وأكل الربا وشرب الخمر وتعظيم رب المال وقلة الكرام وكثرة اللئام وتباهى الناس فى المساجد واتخاذها طرقا وسوء الجوار وقطيعة الارحام وقلة العلم وان يوسد الامر الى غير أهله وان يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع الى مايطول ذكره، *

ومن وقف على الكتب المؤلفة فى هذا الشأن واطلع على أحوال الازمان رأى أن أكثر هذه العلامات قد برزت للعيان وامتلأت منها البلدان، ومع هذا كله أمر الساعة مجهول ورداء الخفاء عليه مسدول . وقصارى ماينبغى أن يقال: ان مابقى من عمر الدنيا أقل قليل بالنسبة الى ماضى، وفى بعض الآثار انه عليه الصلاة والسلام خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبق منها الا أسف أى شىء فقال «والذى نفس محمد بيده مامثل مامضى من الدنيا فيما بقى منها إلا مثل مامضى من يومكم هذا فيما بقى منه ومابقى منه إلا اليسير» ولا ينبغى أن يقال :إن الالف الثانية بعد الهجرة وهى الالف التى نحن فيها هى ألف مخضرمة أى نصفها من الدنيا ونصفها الآخر من الآخرة، وقال الجلال السيوطى فى رسالة سماها الكشف عن مجاوزة هذه الامة الالف: الذى دلت عليه الآثار أن مدة هذه الامة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة عليها ألف سنة وبنى الامر على ماورد من أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث فى آخر الالف السادسة وأن الدجال يخرج على رأس مائة وينزل عيسى عليه السلام فيقتله ثم يمكث فى الارض أربعين سنة وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة وأن بين النفختين اربعين سنة، وذكر الاحاديث والاخبار فى ذلك *

وفى بهجة الناظرين وآيات المستدلين قد احتج كثير من العلماء على تعيين قرب زمانها بأحاديث لاتخلو عن نظر فمنهم من قال : بقى منها كذا، ومنهم من قال: يخرج الدجال على رأس كذا وتطلع الشمس على رأس كذا، وافرد الحافظ السيوطى رسالة لذلك كله وقال: تقوم الساعة فى نحو الالف والخمسمائة، وكل ذلك مردود وليس للمتكلمين فى ذلك الاظن وحسبان لايقوم عليه من الوحى برهان انتهى، ونقله السفارينى فى البحور الزاخرة فى علوم الآخرة ، وذكر السيوطى عدة اخبار فى كون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، أولها ما أخرجه الحكيم الترمذى

فى نوادر الاصول بسنده عن أبى هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من امتى ثم ماتوا عليها فهم فى الباب الاول من جهنم » وساق بقية الحديث، وفيه « واطولهم مكثا فيه من يمكث فيها مثل الدنيا منذ خلقت الى يوم أفنيت وذلك سبعة آلاف سنة » الحديث وتعقبه السفارينى بقوله: ذكر الحافظ ابن رجب فى كتابه صفة النار ان هذا الحديث خرجه ابن أبى حاتم وغيره، وخرجه الاسماعيلى مطولا، وقال الدارقطنى فى كتاب المختلف: هو حديث منكر وذكر علله، ومما ذكره السيوطى فى ذلك ما نقل هو ضعف اسناد رفعه، وقد يرد عليه بانه قد مضى من زمن البعثة الى يومنا هذا ألف ومئتان وثمانى وستون سنة وإذا ضم اليها ما ذكره من سنى مكث عيسى عليه السلام وبقاء الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها وما بين النفختين وهى مائتا سنة تصير ألفا وأربعمائة وثمانى وسبعين فيبقى من المدة التى ذكرها اثنتان وعشرون سنة والى الآن لم تطلع الشمس من مغربها ولا خرج الدجال الذى خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين ولا ظهر المهدى الذى ظهوره قبل الدجال بسبع سنين ولا وقعت الاشراط التى قبل ظهور المهدى، ولا يكاد يقال: إنه يظهر بعد خمس عشرة سنة ويظهر الدجال بعدها بسبع سنين على رأس المائة الثالثة من الالف الثانية لأن قبل ذلك مقدمات تكون فى سنين كثيرة، فالحق أنه لا يعلم ما بقى من مدة الدنيا إلا الله عز وجل وأنه وإن طال أقصر قصير وما متاع الحياة الدنيا إلا قليل، وكذا فيما أرى مبدأ خلقها لا يعلمه إلا الله تعالى وما يذكرونه فى المبدا لو صح فانما هو فى مبدا خلق الخليفة آدم عليه السلام لا مبدأ خلق السماء والارض والجبال ونحوها .

وحكى الشيخ محيي الدين قدس سره عن ادريس عليه السلام وقد اجتمع معه اجتماعا روحانيا وساله عن العالم انه قال: نحن معاشر الانبياء نعلم أن العالم حادث ولا نعلم متى حدث. والفلاسفة على المشهور يزعمون ان من العالم ماهو قديم بالشخص وماهو قديم بالنوع مع قولهم بالحدوث الذاتى ولا يدثر عندهم. وذهب الملا صدر الشيرازى انهم لا يقولون إلا بقدم العقول المجردة دون عالم الاجسام مطلقا بل هم قائلون بحدوثها ودثورها واطال الكلام على ذلك فى الاسفار وأتى بنصوص أجلتهم كارسطو وغيره. وحكى البعض عنهم انه خلق هذا العالم الذى نحن فيه وهو عالم الكون والفساد والطالع السنبلة ويدثر عند مضى ثمانية وسبعين الف سنة وذلك عند مضى مدة سلطان كل من البروج الاثنى عشر ووصول الامر إلى برج الميزان وزعموا أن مدة سلطان الحمل اثنا عشر الف سنة ومدة سلطان الثور أقل بالف وهكذا إلى الحوت *

ونقل البكرى عن هرمس أنه زعم أنه لم يكن فى سلطان الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان فلما كان سلطان الاسد تكونت دواب الماء وهوام الارض فلما كان سلطان الاسد تكونت الدواب ذوات الاربع فلما كان سلطان السنبلة تولد الانسانان الاولان ادمانوس وحوانوس، وزعم بعضهم أن مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التى هى ثلثمائة وستون درجة وقطعها لكل درجة على قول كثير منهم فى مائة سنة فتكون مدته ستا وثلاثين ألف سنة وكل ذلك خبط لا دليل عليه. ومن أعجب ما رأيت مازعمه بعض الاسلاميين من أن الساعة تقوم بعد ألف وأربعمائة وسبع سنين أخذا من قوله تعالى: (فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة) وقوله سبحانه: (لا تأتيكم الا بغتة) بناء على أن عدة حروف (بغتة) بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وسبع ويوشك أن يقول قائل: هى ألف وثمانمائة واثنان وبحسب تاء التأنيث أربعمائة لا خمسة فانه رأى بعض أهل الحساب كما فى فتاوى خير الدين الرملي ويجيء آخر ويقول: هي أكثر من ذلك أيضا ويعتبر بسط الحروف على

نحو ماقالوا فى اسم محمد ﷺ إنه متضمن عدة المرسلين عليه السلام، وأنت تعلم أن مثل ذلك مما لا ينبغى لعاقل أن يعول عليه أو يلتفت اليه، والحزم الجزم بأنه لا يعلم ذلك الا اللطيف الخبير ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة لا عن قوله تعالى: (هل ينظرون) كأنه قيل: إذا علمت أن الامر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فهو من موجبات السعادة، وفسر الامر بالعلم بالثبات عليه لأن علمه ﷺ بالتوحيد لا يجوز أن يترتب على ماذكره سبحانه من الاحوال فانه عليه الصلاة والسلام موحد عن علم حال ما يوحى اليه ولأن المعنى فتمسك بما أنت فيه من موجبات السعادة لا باطلب السعادة، وقال بعض الافاضل: إن الثبات أيضا حاصل له عليه الصلاة والسلام فأمره بذلك ﷺ تذكيرله بما انعم الله تعالى عليه توطئة لمابعده، وتعقب بان المراد بالثبات الاستمرار وهو بالنظر إلى الازمنة الآتية وذلك وإن كان مما لا بد من حصوله له عليه الصلاة والسلام لـكن العصمة لـكن المعصوم يؤمر وينهى فيأتى بالمامور ويترك المنهى ولا بد للعصمة والامر فى قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ قيل على معنى الثبات أيضا، وجعل الاستغفار كناية عما يلزمه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير لأنه ﷺ معصوم أو مغفور ولا مصر ذاهل عن الاستغفار، وقيل: التحقيق أنه توطئة لمابعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات؛ ولعل الاولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئة، والنبى ﷺ كان يكثر الاستغفار، أخرج أحمد. ومسلم. وأبو داود. والنسائى. وابن حبان عن الاغر المزنى رضى الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ أنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة» وأخرج النسائى. وابن ماجه. وغيرهما عن أبى موسى قال: «قال رسول الله ﷺ ما أصبحت غداة قط الا استغفرت الله فيها مائة مرة» وأخرج أبو داود. والترمذى وصححه. والنسائى. وابن ماجه. وجماعة عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: «إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ فى المجلس يقول: رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» وفى لفظ «التواب الغفور» إلى غير ذلك من الاخبار الصحيحة *

والذنب بالنسبة اليه عليه الصلاة والسلام ترك ماهو الاولى بمنصبه الجليل ورب شئ حسنة من شخص سيئة من آخر كما قيل: حسنات الابرار سيئات المقربين؛ وقد ذكروا أن لنبينا ﷺ فى كل لحظة عروجا إلى مقام أعلى مما كان فيه فيكون ماعرج منه فى نظره الشريف ذنبا بالنسبة إلى ماعرج اليه فيستغفر منه، وحملوا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إنه ليغان على قلبى» الحديث وفيه أقوال أخر، وقوله تعالى: (وللمؤمنين) على حذف مضاف بقرينة ماقبل أى ولذنوب المؤمنين، وأعيد الجار لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنبه عليه الصلاة والسلام فانها معاص كبائر وصغائر وذنبه ﷺ ترك الأولى بالنسبة الى منصبه الجليل، ولا يبعد أن يكون بالنسبة اليهم من أجل حسناتهم، قيل: وفى حذف المضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم اشعار بفرط احتياجهم اليه فكأن ذواتهم عين الذنوب وكذا فيه إشعار بكثرتها، وجوز بعضهم كون الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أن فى صحته كلاما، فالظاهر ابقاء اللفظ على حقيقته *

وفى تقديم الأمر بالتوحيد ايذان بمزيد شرف التوحيد فانه اساس الطاعات ونبراس العبادات، وفى الـكلمة الطيبة أبحاث شريفة ولطائف منيفة لا بأس بذكر بعضها وإن تقدم شىء من ذلك فنقول: المشهور أن الا للاستثناء والاسم الجليل بدل من محل اسم لا النافية للجنس وخبر (لا) محذوف، واستشكل الابدال من جهتين أولاهما أنه بدل بعض وليس معه ضمير يعود على المبدل منه وهو شرط فيه؛ وأجيب بمنع كونه شرطاً مطلقاً

بل هو شرط حيث لاتفهم البعضية بقرينة وههنا قد فهمت بقرينة الاستثناء. ثانيتهما أن بين المبدل منه والبدل مخالفة فان الأول منفي والثانى موجب *

وأجاب السيرافى بأنه بدل عن الأول فى عمل العامل والتخالف نفيا وإيجابا لايمنع البدلية لأن مذهب البدل أن يجعل الأول كأنه لم يذكر والثانى فى موضعه وقد تتخالف الصفة والموصوف فى ذلك نحو مررت برجل لا كريم ولا لبيب على أنه لو قيل: إن البدل فى الاستثناء قسم على حياله مغاير لغيره من الابدال لكان له وجه *

واستشكل أمر الخبر بأنه ان قدر ممكن يلزم عدم إثبات الوجود بالفعل للواحد الحقيقى تعالى شأنه أو موجود يلزم عدم تنزيهه تعالى عن إمكان الشركة وتقدير خاص مناسب لا قرينة عليه قيل: ولصعوبة هذا الاشكال ذهب صاحب الكشاف وأتباعه إلى أن الكلمة لاغير محتاجة الى خبر وجعل (إلا الله) مبتدأ و(لا إله) خبره والأصل الله إله أى معبود بحق لكن لما أريد قصر الصفة على الموصوف قدم الخبر وقرن المبتدا بالا إذ المقصور عليه هو الذى يلى إلا والمقصور هو الواقع فى سياق النفى والمبتدأ إذا اقترن بالا وجب تقديم خبره. وتعقب بأنه مع مافيه من التمحل يلزم منه بناء الخبر مع لا وهى لايبنى معها الا المبتدأ، وأيضا لو كان الأمر كذلك لم يكن لنصب الاسم الواقع بعدها وجه وقد جوزه جماعة *

وقال بعض الأفاضل: ان لا اله الا الله على هذا المذهب قضية معدولة الطرفين بمنزلة غير الحى لا عالم بمعنى الحى عالم ولا يدفع الاعتراض كما لايخفى، وقال بعضهم: ان الخبر هو (الا الله) أعنى الامع الاسم الجليل وأورد عليه أن الجنس مغاير لكل من أفراده فكيف يصدق حينئذ سلب مغايرة فرد عنه اللهم الا أن يقال: ان ذلك بناء على تضمين معنى من وان المفهوم منه أنه انتفى من هذا الجنس غير هذا الفرد، والوجه كما قيل أن يقال: ان المغايرة المنفية هى المغايرة فى الوجود لا المغايرة فى المفهوم حتى لا يصدق، ولا شك أن المراد من الجنس المنفى بلا هذه هو المفهوم من غير اعتبار حصوله فى الأفراد كلها أو بعضها فيكون محمولا لا بمعنى اعتبار عدم حصوله فيها أصلا حتى لا يصح حمله اذ لا يلزم من عدم اعتبار شىء اعتبار عدمه ومتى تحقق الحمل تحقق عدم المغايرة فى الوجود فتدبره *

وقال بعضهم: لاخبر للاهذه أصلا على ماقاله بنو تميم فيها، وأورد عليه أنه يلزم حينئذ انتفاء الحكم والعقد وهو باطل قطعا ضرورة اقتضاء التوحيد ذلك ولا يبعد أن يقال: ان القول بعدم احتياج لا الى الخبر لايخرج المركب منها ومن اسمها عن العقد وذلك لأن معنى المركب نحو لارجل على هذا التقدير انتفى هذا الجنس فاذا قلنا: لارجل الا حاتم كان معناه انتفى هذا الجنس فى غير هذا الفرد ويخدشه ان تركب الكلام من الحرف والاسم مما ليس اليه سبيل، وربما يدفع بما قيل فى النداء مثل يازيد من أنه قائم مقام ادعوه، والشريف العلامة قدس سره صرح فى بيان مانقل عن بنى تميم من عدم اثبات خبر لاهذه بانه يحتمل أن يكون بناء على أن المفهوم من التركيب كما ذكر آنفاً انتفاء هذا الجنس ثم ان كلمة الا على هذا التقدير بمعنى غير ولا مجال لكونها للاستثناء لا لما يتوهم من التناقض بناء على أن سلب الجنس عن كل فرد فرد ينافى اثباته لواحد من أفراده فانه مدفوع بنحو ما اختاره نجم الأئمة فى دفع التناقض المتوهم فى مثل ماقام القوم الا زيدا لوجوب شمول القوم المنفى عنهم الفعل لزيد المثبت هو له فيما يتبادر بان يقال: ان الجنس الخارج عنه هذا الفرد منتف فى ضمن كل ما عداه ولا لما قد يتوهم من عدم تناول الجنس المنفى لما هو بعد الا وهو شرط الاستثناء لما عرفت من الفرق بين

الجنس بدون اعتبار حصوله فى الأفراد وبينه مع اعتبار عدم حصوله فيها بل لأنها لو كانت للاستثناء لما أفاد الـكلام التوحيد لأنه يكون حاصله حينئذ أن هذا الجنس على تقدير عدم دخول هذا الفرد فيه منتف فيفهم منه عدم انتفائه فى افراد غير خارج عنها ذلك الفرد فاين التوحيد، فالواجب حملها على معنى غير وجعلها تابعة لمحل اسم لا بدلا عنه أو صفة كما فى قوله : وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

كذا رأيته فى بعض نسخ قديمة وذكره بعض شيوخ مشايخنا العلامة الطبقجلى فى رسالته شرح الـكلمة الطيبة ولم يتعقبه بشىء، وعندى أن ما ذكر فى نفى كون الا للاستثناء على ذلك التقدير لا يخلو عن نظر، ثم إنه قيل : اذا كان مضمون المركب على ذلك التقدير ان هذا الجنس منتف فيما عدا هذا الفرد كانت القضية شخصية ولها لازم هو قضية كلية - أعنى قولنا كل ما يعتبر فردا له سوى هذا الفرد فهو منتف - ولا استبعاد فى شىء من ذلك *

وذهب الـكثير إلى تقدير الخبر موجود وأجاب عن الاشكال بأنه يلزم نفى الامكان العام من جانب الوجود عن الآلهة غير الله تعالى وذلك مبنى على مقدمة قطعية معلومة للعقلاء هى أن المعبود بالحق لا يكون الا واجب الوجود فيصير المعنى لا معبود بحق موجود إلا الله وإذ ليس موجوداً ليس ممكنا لأنه لو كان ممكنا لـكان واجبا بناء على المقدمة القطعية فيكون موجودا، وقد أفادت الـكلمة الطيبة أنه ليس بموجود فليس بممكن لأن نفى اللازم يدل على نفى الملزوم . واعترض بأن المقدمة القطعية وإن كانت صحيحة فى نفس الامر لكنها غير مسلمة عند المشركين لأنهم يعبدون الاصنام ويعتقدونها آلهة مع اعترافهم بأنها ممكنة محتاجة إلى الصانع (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) فيمكن أن يعترف المـكلف بالـكلمة الطيبة ويعتقد أن نفى الوجود لا يستلزم نفى الامكان فيمكن عنده وجود آلهة غير الله تعالى فلا يكون التلفظ بالـكلمة نصا على ايمانه ولو كانت المقدمة المذكورة مسلمة عند الـكل لأمكن ان يقدر الخبر من اول الامر موجود بالذات أى لا إله موجود بالذات الا الله واذا لم يكن غيره تعالى موجودا بالذات لم يكن مستحقا للعبادة لأن المستحق لها لا يكون الا واجبا لذاته *

وقد قرر الجواب بوجهين آخرين . الاول أن لا إله موجود قضية سالبة حملية لا بد لها من جهة وهى الامكان العام فيكون المعنى أن الجانب المخالف للسلب وهو اثبات الوجود ليس ضروريا للآلهة إلا الله تعالى فانه موجود بالامكان العام أى جانب السلب ليس ضروريا له تعالى فيكون الوجود ضروريا له سبحانه تحقيقاً للتناقض بين المستثنى والمستثنى منه . الثانى أن لا إله موجود بالامكان العام سالبة كلية ممكنة عامة فيكون المتحصل بالاستثناء الذى هو نقيض موجبة جزئية ضرورية أى الله موجود بالضرورة . وأورد على التقريرين أنهما إنما يتمان إذا كان كل من طرفى المستثنى والمستثنى منه قضية مستقلة وهو ممنوع، والصحيح عند أهل العربية أنهما كلام واحد مقيد بالاستثناء فلا يجرى فيهما أحكام التناقض إلا أن يؤول بالمعنى اللغوى، وأيضا جعل الله موجود بالضرورة قضية جزئية فيه تساهل، وقيل : يمكن أن يقال الخبر المقدر هو الموجود مطلقا سواء كان بالفعل أو بالامكان على استعمال المشترك فى كلا معنييه أو على تأويله بما يطلق عليه اسم الموجود وهو كما ترى، وقيل : يجوز تقديره ممكن ونفى الامكان يستلزم نفى الوجود لأن الاله واجب الوجود وامكان اتصاف شىء بوجوب الوجود يستلزم

اتصافه بالفعل بالضرورة فاذا استفيد من الكلمة الطيبة امكانه يستفاد منه وجوده أيضا إذ كل ما لم يوجد يستحيل أن يكون واجب الوجود، ويعلم ما فيه مما مر فلا تغفل، وقال بعضهم: الخبر المقدر مستحق للعبادة، فالمعنى لا اله مستحق للعبادة الا الله، ولا محذور فيه. واعترض بأن هذا كون خاص ولابد في حذفه من قرينة ولا قرينة فلا يصح الحذف. وأجيب بأنها كنار على علم لأن الاله بمعنى المعبود فدل على العبادة واستحقاقها، ويؤيده ملاحظة المقام واعتبار حال المخاطبين لأن هذه الكلمة الطيبة واردة لرد اعتقاد المشركين الزاعمين أن الاصنام تستحق العبادة *

واعترض أيضا بأنه لا يدل على نفي التعدد مطلقا أي لا بالامكان ولا بالفعل لجواز وجود اله غيره سبحانه لا يستحق العبادة، وأيضا يمكن أن يقال: المراد إما نفي اله مستحق للعبادة غيره تعالى بالفعل أو بالامكان فعلى الأول لا ينفي امكان اله مستحق للعبادة أيضا غيره عز وجل وعلى الثاني لا يدل على استحقاقه تعالى للعبادة بالفعل. ورد بأن وجوب الوجود مبدأ جميع الكمالات ولذا فرعوا عليه كثيرا منها فلا ريب أنه يوجب استحقاق التعظيم والتبجيل، ولا معنى لاستحقاق العبادة الا ذلك فاذا لم يستحق غيره تعالى العبادة لم يوجد واجب وجود غيره سبحانه والا لاستحق العبادة قطعا، وإذا لم يوجد لم يكن ممكنا أيضا فثبت أن نفي استحقاق العبادة يستلزم نفي التعدد جزما *

وتعقب بأن فيه البناء على أن الاله لا يكون الا واجب الوجود، وقد سمعت أنها وإن كانت قطعية الصدق في نفس الامر الا أنها غير مسلمة عند المشركين. ومن المحققين من قال: إنه لا يلتفت إلى عدم تسليمهم لمكابرتهم ما عسى أن يكون بديهيا. نعم ربما يقال: إن الكلمة الطيبة على ذلك التقدير انما تدل على نفي المعبود بالفعل بناء على ما قرر في المنطق أن ذات الموضوع يجب اتصافه بالعنوان بالفعل، ويجاب بمنع وجوب ذلك بل يكفي الاتصاف بالامكان كما صرح به الفارابي، وأما ما نقل عن الشيخ فمعناه كونه بالفعل بحسب الفرض العقلي لا بحسب نفس الامر كما تدل عليه عبارته في الشفاء والاشارات فيرجع إلى معنى الامكان *

والفرق بين المذهبين أن في مذهب الشيخ زيادة اعتبار ليست في مذهب الفارابي وهي أن الشيخ اعتبر مع الامكان بحسب نفس الأمر فرض الاتصاف بالفعل ولم يعتبره الفارابي، وبالجملة إن الاتصاف بالفعل غير لازم فكل ما يمكن اتصافه بالمعبودية داخل في الحكم بأنه لا يستحق العبادة، ولما كانت القضية سالبة صدقت وان لم يوجد الموضوع، ولعل التحقيق في هذا المقام ان الكلمة الطيبة جارية بين الناس على متفاهم اللغة والعرف لا على الاصطلاحات المنطقية والتدقيقات الفلسفية، وهي كلام ورد في رد اعتقاد المشرك الذي اعتقد أن آلهة غير الله سبحانه تستحق العبادة فاذا اعترف المشرك بمضمونه من أنه لا معبود مستحق للعبادة الا الله تعالى علم من ظاهر حاله الايمان، ولهذا اكتفى به الشارع عليه الصلاة والسلام، وأما الكافر الذي يعتقد امكان وجود ذات تستحق العبادة بعد فلا تكفي هذه الكلمة الطيبة في إيمانه كما لا تكفي في إيمان من أنكر النبوة أو المعاد أو نحو ذلك مما يجب الايمان به بل لابد من الاعتراف بالحكم الذي أنكره ولا محذور في ذلك، ولما كان الكفرة الذين يعتقدون أن آلهة غير الله تعالى تستحق العبادة هم المشهورون دون من يعتقد إمكان وجودها بعد اعتبرت الكلمة علما للتوحيد بالنسبة اليهم *

ويعلم من هذا أنه لو قدر الخبر المحذوف من أول الأمر موجود أمكن دفع الاشكال بهذا الطريق أعني متفاهم اللغة وعرف الناس من الأوساط، وأما أن نفي الوجود لا يستلزم نفي الامكان فلا يلزم من الكلمة الطيبة حينئذ نفي إمكان آلهة غير الله تعالى فمما لا يسبق إلى الأفهام ولا يكاد يوجد كافر يعتقد نفي وجود إله

غيره تعالى مع اعتقاده امكان وجود إله غيره سبحانه بعد ذلك ، ومن الناس من أيد تقدير الخبر كذلك بأن الظاهر أن لا نافية للجنس ونفى الماهية نفسها بدون اعتبار الوجود واتصافها به كنفى السواد نفسه لانفى وجوده عنه بعيد ، فكما أن جعل الشئ باعتبار الوجود اذ لا معنى لجعل الشىء وتصييره نفسه فكذلك نفيه ورفعه أيضا باعتبار رفع الوجود عنه . وتعقب بأن هذا هو الذى يقتضيه النظر الجليل ، وأما النظر الدقيق فقد يحكم بخلافه لأن نفى الماهية باعتبار الوجود ينتهى بالآخرة إلى نفى ماهية ما باعتبار نفسها ، وذلك لأن نفى اتصافها بالوجود لايكون باعتبار اتصاف ذلك الاتصاف به إلى مالا يتناهى ، فلا بد من الانتهاء إلى اتصاف منتف بنفسه لا باعتبار اتصافه بالوجود دفعا للتسلسل ، وقيل : الظاهر أن نفى الأعيان كما فى الكلمة الطيبة انما هو باعتبار ذلك ، واما غيرها فتارة وتارة فتدبر ، و (إلا) على التقدير المذكور للاستثناء ورفع الاسم الجليل على ماسمعت من المشهور ، وقيل: هى فيه بمعنى غير صفة الاسم لا باعتبار المحل أى لا إله غير الله تعالى موجود *

واعترض بأن المقصود من الكلام أمران نفى الالوهية عن غيره تعالى واثباتها له سبحانه ، وهو إنما يتم إذا كانت لا فيه للاستثناء إذ يستفاد النفى والاثبات حينئذ بالمنطوق اما إن كانت بمعنى غير فلا يفيد بمنطوقه الا نفى الألوهية عن غيره تعالى سبحانه وفى كون اثباتها له تعالى بالمفهوم ويكتفى به بحث لان ذلك أن كان مفهوم لقب فلا عبرة عند القائلين بالمفهوم على الصحيح خلافا للدقاق . والصيرفى من الشافعية ، وابن خويزمنداد من المالكية ، ومنصور بن أحمد من الحنابلة ، وإن كان مفهوم صفة فمن البين أنه غير مجمع عليه بل أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه لم يقل بشىء من مفاهيم المخالفة أصلا ، وأنت تعلم أن ماذكره من إفادة الكلمة الطيبة اثبات الالهية لله تعالى ونفيها عما سواه عزوجل على تقدير كون إلا للاستثناء غير مجمع عليه ايضا فان الاستثناء من النفى ليس باثبات عند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وجعل الاثبات فى كلمة التوحيد بعرف الشرع ، وفى المفرغ نحو ماقام إلا زيد بالعرف العام ، وما له وماعليه فى كتب الاصول فلا تغفل ، وتمام الكلام فيما يتعلق باعراب هذه الكلمة الطيبة فى كتب العربية ، وقد ذكرنا ذلك فى تعليقاتنا على شرح السيوطى للالفية ، وهى عند السادة الصوفية قدست أسرارهم جامعة لجميع مراتب التوحيد ودالة عليها اما منطوقا أو بالاستلزام ، ومراتبه أربع . الأولى توحيد الالوهية . الثانية توحيد الافعال . الثالثة توحيد الصفات ، وإن شئت قلت : توحيد الوجوب الذاتى فانه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرعها عليه بعض المحققين . الرابعة توحيد الذات وإن شئت قلت : توحيد الوجود الحقيقى فان المآل واحد عندهم ، وبيان ذلك أن لا إله إلا الله منطوقه ـ على مايتبادر إلى الاذهان وذهب اليه المعظم ـ قصر الالوهية على الله تعالى قصرا حقيقيا أى إثباتها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كل ماسواه سبحانه كذلك وهو يستلزم توحيد الافعال . وتوحيد الصفات . وتوحيد الذات . أما الاول الذى هو قصر الخالقية فيه تعالى فلأن مقتضى قصر الالوهية عليه تعالى قصرا حقيقيا هو أن الله عزوجل هو الذى يستحق أن يعبده كل مخلوق فهو النافع الضار على الاطلاق فهو سبحانه وتعالى الخالق لكل شىء ، فان كل من لا يكون خالقا لكل شىء لايكون نافعا ضارا على الاطلاق وكل من لايكون كذلك لا يستحق أن يعبده كل مخلوق لان العبادة هى الطاعة والانقياد والخضوع ومن لايملك نفعا ولاضرا بالنسبة إلى بعض المخلوقين لايستحق أن يعبده ذلك البعض ويطيعه وينقاد له ، فان من لايقدر على إيصال نفع إلى شخص أو دفع ضر عنه لا يرجوه ، ومن لا يقدر على إيصال ضر اليه لايخافه ، وكل من لا يخاف ولا يرجى أصلا لا يستحق أن يعبد ، وهو ظاهر لكن الذى يقتضيه قصر الألوهية عليه تعالى قصرا حقيقيا هو أن الله تعالى هو الذى يستحق أن يعبده كل مخلوق فهو النافع الضار

على الاطلاق فهو الخالق لكل شيء وهو المطلوب ، وأما الثانى فلأن الكلمة الطيبة تدل على أن الالوهية ثابتة له تعالى ثبوتا مستمرا ممتنع الانفكاك ومنتفية عن غيره انتفاء كذلك، وكل ما كان كذلك فهى دالة على أنه عز وجل واجب الوجود ، وأن كل موجود سواه تعالى ممكن الوجود ؛ وكل ما كان كذلك كان وجوب الوجود مقصورا عليه تعالى وهو مستلزم لسائر صفات الكمال وهو المطلوب ، أما دلالتها على أنه عز وجل واجب الوجود فلأن الالوهية لاتكون إلا لموجود حقيقة اتفاقا ، وكل ما لا يكون صفة الا لموجود إذا دل كلام على أنه ثابت لشيء ثبوتا ممتنع الانفكاك سرمدا فقد دل على أن الوجود ثابت لذلك الشيء ثبوتا ممتنع الانفكاك سرمدا ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موجودا لذاته وهو المعنى بواجب الوجود لذاته ، وحيث دلت على ثبوت الالوهية ثبوتا مستمرا ممتنع الانفكاك فقد دلت على وجوب وجوده تعالى وهو مستلزم لسائر صفات الكمال وهو المطلوب *

وأما دلالتها على أن كل موجود سواه فهو ممكن الوجود فلأن موجودا ماسواه لو كان واجب الوجود لذاته لكان مستحقا أن يعبد لكنها قد دلت على أنه لا يستحق أن يعبد الا الله فقد دلت على أنه لا واجبا وجوده لذاته الا الله تعالى فكل ما سواه فهو ممكن وهو المطلوب ، أو يقال : إنها قد دلت على أنه تعالى هو النافع الضار على الاطلاق فهو الجامع لصفات الجلال والاكرام فهو سبحانه المتصف بصفات الكمال كلها وهو المطلوب . وأما الثالث فقد قال حجة الاسلام الغزالى فى باب الصدق من الاحياء : كل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا ، وقال نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم : « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة » سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له ، وقال فى باب الزهد منه : من طلب غير الله تعالى فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه ، وقال فى الباب الثالث من كتاب العلم منه . كل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبودا قال تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « أبغض اله عبد فى الارض عند الله تعالى هو الهوى » انتهى *

ومن المعلوم أنه ما فى الوجود شيء الا وهو مطلوب لطالب ما وقد صح بما مر اطلاق الاله عليه ولا اله إلا الله فما فى الوجود حقيقة الا الله : ومنهم من قرر دلالة الكلمة الطيبة على توحيد الذات ونفى وجود أحد سواه عز وجل بوجه آخر ، وهو أن (الا) بمعنى غير بدل من الاله المنفى فيكون النفى فى الحقيقة متوجها الى الغير ونفى الغير توحيد حقيقى عندهم ، واذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد لاح لك أن الشارع لأمر ما جعلها مفتاح الاسلام وأساس الدين ومهداة الانام : وفى حديث أخرجه أبو نعيم عن عياض الاشعرى انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا إله الا الله كلمة كريمة ولها عند الله مكان جمعت وسولت (١) من قالها صادقا من قلبه دخل الجنة » وفى حديث أخرجه ابن النجار عن دينار عن أنس انه عليه الصلاة والسلام قال : « لا إله الا الله كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى من قالها مخلصا استوجب الجنة » وأخرج مسلم عن ابى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذهب بنعلى هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » وحديث البطاقة أشهر من أن يذكر ، وكذا الحديث القدسى المروى عن على الرضا عن آبائه عليهم السلام ، وجاء « من كان آخر كلامه من الدنيا لا اله الا الله

(١) قوله وسولت كذا فى غير نسخة بسين مهملة ولام وليراجع مستخرج ابى نعيم

دخل الجنة أى بلا حساب والا فما الفرق بين ذلك ومن قالها ولم تكن آخر كلامه من الدنيا ، وبالجملة إن فضلها لا يحصى وانها لتوصل قائلها الى المقام الاقصى ، وقد ألفت كتب فى فضلها وكيفية النطق بها وآداب استعمالها فلا نطيل الكلام فى ذلك * بقى ههنا بحث وهو أن المسلمين أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى وان اختلفوا فى كونه شرعيا أو عقليا ، وأما النظر فى معرفته تعالى لأجل حصولها بقدر الطاقة البشرية فقد قال العلامة التفتازانى فى شرح المقاصد : لاخلاف بين أهل الاسلام فى وجوبه لأنه أمر مقدور يتوقف عليه الواجب المطلق الذى هو المعرفة ، وكل مقدور يتوقف عليه الواجب المطلق فهو واجب شرعا ان كان وجوب الواجب المطلق شرعيا كما هو رأى الاصحاب وعقلا ان كان عقليا كما هو رأى المعتزلة لئلا يلزم تكليف المحال ، أما كون النظر مقدورا فظاهر ، وأما توقف المعرفة عليه فلأنها ليست بضرورية بل نظرية ، ولا معنى للنظرى الا ما يتوقف على النظر ويتحصل به ، وظاهر كلام السيد السند فى شرح المواقف اجماع المسلمين كافة على ذلك أيضا ، والحق وقوع الخلاف فى وجوب النظر كما يدل عليه كلام ابن الحاجب فى مختصره ، والعضد فى شرحه ، وكلام التاج السبكى فى جمع الجوامع ، والجلال المحلى فى شرحه ، وقول شيخ الاسلام فى حاشيته عليه : محل الخلاف فى وجوب النظر فى أصول الدين وعدم وجوبه فى غير معرفة الله تعالى منها أما النظر فيها فواجب اجماعا كما ذكره السعد التفتازانى كغيره اعترضه المحقق ابن قاسم العبادى فى حاشيته الآيات البينات بقوله : ان الظاهر أن ما نقله السعد من الاجماع على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى غير مسلم عند الشارح وغيره ، ألا ترى الى تمثيل الشارح لمحل الخلاف بقوله: كحدوث العالم ووجود البارى تعالى وما يجب له جل شأنه وما يمتنع عليه سبحانه من الصفات فان قوله : ووجود البارى تعالى الخ يتعلق بمعرفته عز وجل الى آخر ما قال . نعم قال كثير ورجحه الامام الرازى . والآمدى : إنه يجب النظر فى مسائل الاعتقاد ومعرفة الله تعالى أسها فيجب فيها بالاولى ، وقالوا فى ذلك . لأن المطلوب اليقين لقوله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم : (فاعلم انه لا اله الا الله) وقد علم ذلك ، وقال تعالى للناس : (واتبعوه لعلكم تهتدون) ويقاس غير الوحدانية عليها ، ولا يتم الاستدلال الا بضم توقف حصول اليقين على النظر . وهؤلاء لم يجوزوا التقليد فى الاصول وهو أحد أقوال فى المسئلة، ثانيها قول العنبرى . إنه يجوز التقليد فيها بالعقد الجازم ولا يجب النظر لها لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفى فى الايمان بالعقد الجازم ويقاس غير الايمان عليه *

والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفى بذلك نظرا الى ظاهر الحال فان الخبر كما صرح به المحقق عيسى الصفوى فى شرحه للفوائد الغياثية على ما نقله عنه تلميذه ابن قاسم العبادى فى الآيات البينات دال وضعا على صورة ذهنية على وجه الاذعان تحكى الحال الواقعية ، ولا شك أن لا إله الا الله محمد رسول الله من قسم الخبر فهما دالان وضعا على ان قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقد لمضمونهما على وجه الاذعان ، وعدم كونه معتقدا فى نفس الأمر احتمال عقلى ، والمطلع على ما فى القلوب علام الغيوب • وثالث الاقوال أنه يجب التقليد بالعقد الجازم ويحرم النظر لأنه مظنة الوقوع فى الشبه والضلال لاختلاف الاذهان بخلاف التقليد وهذا ليس بشىء أصلا • والذى أوجب النظر من المحققين لم يرد به النظر على طريق المتكلمين بل صرح كما فى الجواب العتيد للكورانى بأن المعتبر هو النظر على طريق العامة ، والظاهر انه ليس مظنة الوقوع فيما ذكر ، وهل القائل بوجوبه من أولئك جاعل له شرطا لصحة الايمان أم لا ففيه خلاف . فيفهم من بعض

عبارات شرح الاربعين لابن حجر انه جاعل له كذلك فلا يصح ايمان المقلد عنده ، بل يفهم منها أن النظر المعتبر عند ذلك هو النظر على طريق المتكلمين ، وكلام الجلال المحلي في شرح جمع الجوامع صريح في أن القائلين بوجوب النظر غير أبي هاشم ليسوا جاعلين النظر شرطا لصحة الايمان ولا زاعمين بطلان ايمان المقلد بل هو صحيح عندهم مع الاثم بترك النظر الواجب . نعم سيأتي إن شاء الله تعالى نقل الامام حجة الاسلام في كتابه فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة نقل الاشتراط عن طائفة من المتكلمين مع رده *

وأما ما نقل عن الشيخ الاشعري من الاشتراط وانه لا يصح إيمان المقلد فكذب عليه كما قاله الاستاذ أبو القاسم القشيري ، وقال التاج السبكي : التحقيق أنه ان كان التقليد أخذا بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم فلا يكفي ، وان كان جزما فيكفي خلافا لأبي هاشم . والظاهر أن القائل بكفاية التقليد مع الجزم يمنع القول بأن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر ويقول : انها قد تحصل بالالهام أو التعليم أو التصفية فمن حصل له العقد الجازم بما يجب عليه اعتقاده فقد صح ايمانه من غير اثم لحصول المقصود ، ومن لم يحصل له ذلك ابتداء أو تقليدا أو ضرورة فالنظر عليه متعين (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) *

ويكفي دليلا للصحة اكتفاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من عوام العجم كأجلاف العرب وان أسلم أحدهم تحت ظل السيف بمجرد الاقرار بلا اله الا الله محمد رسول الله الدال بحسب ظاهر حالهم على انهم يعتقدون مضمون ذلك ويذعنون له ، ولو كان الاستدلال فرضا لأمروا به بعد النطق بالكلمتين أو علموا الدليل ولقنوه كما لقنوهما وكما علموا سائر الواجبات ، ولو وقع ذلك لنقل الينا فانه من أهم مهمات الدين ، ولم ينقل أنهم أمروا أحدا منهم أسلم بترديد نظر ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجؤا أمره حتى ينظر فلو كان النظر واجبا على الاعيان ولو اجماليا على طريق العامة لما اكتفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أولئك العوام والاجلاف بمجرد الاقرار لأن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يقرون أحدا على ترك فرض العين من غير عذر ، فلا يكون تاركه آثما فضلا عن ان يكون بتركه غير صحيح الايمان ، ويشهد لذلك ماقاله صلى الله تعالى عليه وسلم لأسامة بن زيد عند اعتذاره عن قتل مرداس بن نهيك من أهل فدك وغيره من الاخبار الكثيرة . وما في المواقف والمقاصد وشرح المختصر العضدي وغيرها من كتب الكلام والاصول من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه كانوا يعلمون أنهم - أي العوام واجلاف العرب يعلمون الادلة اجمالا كما قال الأعرابي : البعرة تدل على البعير واثر الاقدام على المسير أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على اللطيف الخبير أي فلذلك لم يلزموهم النظر ولا سألوهم عنه ولا أرجؤا امرهم وكل ما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرد الاقرار دليلا على ان النظر ليس واجبا على الاعيان ولا على ان تاركه غير آثم دعوى لا دليل عليها ، وحكاية الأعرابي ان كانت مسوقة للاستدلال لا تدل غاية ما في الباب أن ذلك الأعرابي كان عالما بدليل اجمالي ، ولا يلزم منه ان جميع الاجلاف والعوام كانوا عالمين بالأدلة الاجمالية في عهد النبوة وغيره والا لكانت حجة على انه لا مقلد في الوجود ، على أن بعضهم أسند ذلك القول الى قس بن ساعدة وكان في الفترة . والجلال المحلي ذكره لأعرابي قاله في جواب الاصمعي وكان في زمن الرشيد بل قد يقال : ان ظاهر كثير من الآيات والأخبار يدل على أن كثيرا من المشركين في عهده عليه الصلاة والسلام لم يكونوا عالمين بأدلة التوحيد مطلقا ، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم : (أجعل الآلهة

الها واحدا ان هذا لشيء عجاب * إنهم كانوا اذا قيل لهم لا إله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وقول بعضهم فى بعض الحروب: اعل هبل اعل هبل ، وما ذكره المحقق العضد فى شرح المختصر من الدليل على عدم جواز التقليد حيث قال: إن الأمة أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى وأنها لا تحصل بالتقليد لثلاثة أوجه· أحدها انه يجوز الكذب على المخبر فلا يحصل بقوله العلم ثانيها أنه لو أفاد العلم لأفاده بنحو حدوث العالم من المسائل المختلف فيها فاذا قلد واحد فى الحدوث والآخر فى القدم كانا عالمين بهما فيلزم حقيقتهما وأنه محال. ثالثها أن التقليد لو حصل العلم فالعلم بأنه صدق فيما اخبر به إما أن يكون ضروريا أو نظريا لا سبيل الى الاول بالضرورة فلابد له من دليل والمفروض انه لا دليل اذ لو علم صدقه بدليله لم يبق تقليدا تعقبه العلامة الكورانى فقال: فيه بحث ، أما فى الوجه الأول فلأن من جوز التقليد مثل المقلد بمن نشأ على شاهق جبل ولم ينظر فى ملكوت السموات والأرض وأخبره غيره بما يلزمه اعتقاده وصدقه بمجرد اخباره من غير تفكر وتدبر وهو صريح فى أن الكلام فى مقلد أخبره غيره بما يلزمه اعتقاده وما يلزمه اعتقاده لا يكون الا صدقا فان الكذب لا يلزم أحدا اعتقاده ، وأما من أخبر بالاكاذيب فاعتقدها فهو لم يعتقد الا أكاذيب والاكاذيب ليست من معرفة الله تعالى فى شئ فكيف يحكم عليه أحد من العقلاء بأنه مؤمن بالله تعالى عارف به مع أنه لم يعتقد الا الا كاذيب وهو ظاهر ، وأما فى الوجه الثانى فلمثل ما مر لأنا لا نقول: إن كل تقليد مفيد للعلم ولا أن كل مقلد عالم كيف وليس كل نظر مفيدا للعلم ولا كل ناظر مصيبا ، فاذا لم يكن النظر موجبا للعلم مطلقا وإنما الموجب النظر الصحيح فكذلك نقول: ليس كل تقليد مفيدا للعلم وإنما المفيد التقليد الصحيح ، وهو أن يقلد عالما بمسائل معرفة الله تعالى صادقا فيما يخبره به فان الكلام انما هو فى صحة ايمان مثل هذا المقلد لا مطلقا ، وأما فى الثالث فلأنا نختار أن علمه بأنه صدق فيما أخبر به ضرورى قولكم لا سبيل اليه بالضرورة قلنا: ممنوع لقوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وقد روى مرفوعا أنه ﷺ سئل عن شرح الصدر فقال عليه الصلاة والسلام: «نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينفسح» فصرح ﷺ بأنه نور لا يحصل من دليل وإنما يقذفه الله تعالى فى قلبه فلا يقدر على دفعه من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ، وقد صرح بعض أكابر المحققين بأن توحيد الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم ضرورى وجدوه فى نفوسهم لم يقدروا على دفعه وبأن من أهل الفترة من وجد كذلك بل قد صرح بأن الايمان علم ضرورى يجده المؤمن فى قلبه لا يقدر على دفعه فكم من آمن بلا دليل ومن لم يؤمن مع الدليل ، وقلما يوثق بايمان من آمن عن دليل فانه معرض للشبه القادحة فيه *

وفى الباب المائة والاثنين والسبعين والمائة والسابع والسبعين والمائتين والسابع والسبعين من الفتوحات المكية ما يؤيد ذلك ، وقال الامام حجة الاسلام فى فيصل التفرقة: من أشد الناس غلوا وانحرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف الادلة الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر فهؤلاء ضيقوا رحمة الله تعالى الواسعة على عباده أولا ، وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جهلوا ما تواترت به السنة ثانيا إذ ظهر من عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حكمهم باسلام طوائف من اجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل ولو اشتغلوا بها لم يفهموها ، ومن ظن أن مدرك الايمان الكلام والادلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد ، لا بل الايمان نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبده عطية وهداية من عنده ، تارة بتنبه فى الباطن لا يمكن التعبير

عنه ، وتارة بسبب رؤيا فى المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره اليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة حال ، فقد جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ جاحدا له منكرا فلما وقع بصره على طلعته البهية وغرته الغريرة السنية فرآها يتلألأ منها نور النبوة قال: والله ماهذا وجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الاسلام فأسلم، وجاء آخر فقال: انشدك الله بعثك الله نبيا؟ فقال ﷺ : بلى إنى والله الله بعثنى نبيا فصدقه بيمينه وأسلم ، فهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ولم يشتغل واحد منهم قط بالكلام وتعلم الادلة بل كان تبدو أنوار الايمان أولا بمثل هذه القرائن فى قلوبهم لمعة بيضاء ثم لاتزال تزداد وضوحا واشراقا بمشاهدة تلك الاحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفية القلوب ، وليت شعرى من نقل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعن الصحابة إحضاره أعرابيا أسلم وقوله الدليل على أن العالم حادث لأنه لايخلو عن الأعراض ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وان الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما زائد على الذات لاهو ولاغيره إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين ، ولست أقول : لم تجر هذه الالفاظ بل لم يجر أيضاً مامعناه معنى هذه الالفاظ بل كان لاتنكشف ملحمة الاعن جماعة من الاجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الاسارى يسلمون واحدا واحدا بعد طول الزمان أوعلى القرب وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أوغيرها . نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الايمان فى حق بعض الناس ولكن ذلك ليس بمقصور عليه وهو نادر أيضا وساق الكلام إلى أن قال : والحق الصريح أن كل من اعتقد أن ماجاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واشتمل عليه القرآن حق اعتقاداً جزماً فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته ، فالايمان المستعار من الدلائل الكلامية ضعيف جداً مشرف على التزلزل بكل شبهة بل الايمان الراسخ ايمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها اه .

وفيه فوائد شتى ولذا نقلناه بطوله ، ومتى جاز أن يقذف الله تعالى فى قلب العبد نور الايمان فيؤمن بلا نظر واستدلال جاز أن يقذف سبحانه فى قلبه صدق المخبر بحيث لا يقدر على دفعه ولا يدرى أنه من أين جاء لاسيما إذا كان المخبر هو النبى ﷺ ، فان من لازم قذف نور الايمان فى قلب المؤمن به عليه الصلاة والسلام أن يقذف فى قلبه صدقه ﷺ لأن الايمان لا يتم الابذلك ، فقد ظهر أن دعوى الضرورة فى أنه لاسبيل إلى العلم بصدق المخبر فيما أخبر به علماً ضرورياً إن لم تكن مكابرة فمنعها ليس مكابرة أيضاً ، فان الدليل قد قام على جواز حصول العلم الضرورى بصدقه بل على وقوعه فليست تلك الدعوى من المقدمات الضرورية التى يكون منعها مكابرة غير مسموعة ، وقد اتضح من جميع ماذكر أن ماقاله السعد فى شرح المقاصد من أن الحق أن المعرفة بدليل اجمالى يرفع الناظر من حضيض التقليد فرض عين لامخرج عنه لأحد من المكلفين وبدليل تفصيلى يتمكن معه من ازاحة الشبه والزام المنكرين وارشاد المسترشدين فرض كفاية لابد من أن يقوم به البعض لايخلو عن نظر على ماقيل ، لكن الظاهر عندى أن الحق مع السعد من جهة أن الايمان بمعنى التصديق مكلف به وشرط المكلف به كونه اختياريا، وقد صرحوا أن التكليف بماليس باختيارى تكليف فى الحقيقة بما يتوقف عليه من الامور الاختيارية وان التصديق نفسه لكونه غير اختيارى كان التكليف به فى الحقيقة تكليفا بما يتوقف هو عليه من النظر الاختيارى ، فالايمان الذى يحصل بقذفه تعالى النور فى القلب من غير فكر ولاروية ولانظر ولااستدلال ليس اختياريا بنفسه ولاباعتبار مايحصل هو منه فكيف يكون مكلفا به ، ومامراد السعد ومن

وافقه بالمعرفة الاالمعرفة من حيث انها مكلف بها كما يشير اليه قوله : لايخرج عنه لأحدمن المكلفين ، وكون ذلك مكلمابه باعتبار أمر اختيارى غير النظر كتحصيل الاستعداد لافاضة النور وخلق العلم الضرورى فى قلب العبد غير ظاهر . نعم لست انكر ان من المعرفة مالايتوقف على نظر فى دليل اجمالى أوغيره كمعرفة الانبياء عليهم السلام على ماسمعت عن بعضهم ، وكمعرفة من شاء الله تعالى من عباده سبحانه غيرهم ولاأسمى نحوهذه المعرفة تقليدية ، وكذا لاأنكر أن المعرفة الحاصلة من قذف النور فوق المعرفة الحاصلة من النظر فى الدليل فانها يخشى عليها من عواصف الشبه ، وأذهب إلى أن النظر فى الدليل مطلقا واجب على من لم يحصل له العقد الجازم الابه ، وأما من حصل له ذلك بأى طريق كان دونه فلا يجب عليه وكذا لايأثم بتركه ، وحكاية الاجماع على اثمه به لايخفى مافيها ، وتوجيه ذلك بأن جزم المؤمن حينئذ لاثقة به إذ لو عرضت له شبهة فات وبقى مترددا بخلاف الجزم الناشئ عن الاستدلال فانه لا يفوت بذلك غير ظاهر لأنه إذا سلم أن من تم جزمه من غير نظر فقد أتى بواجب الايمان فلا وجه لتأثيمه بترك النظر بناء على مجرد احتمال عروض شبهة مشوشة لجزمه لأنه إذا سلم أن الواجب عليه ليس إلا أن يجزم وقد جزم فقد أدى واجب الوقت وماترك منه شيئا ، وكل من لم يترك واجبا معينا فى وقت معين لا معنى لتأثيمه فى ذلك الوقت من جهة ذلك الواجب ، وكما يحتمل عقلا ان تعرض له شبهة تشوش عليه الجزم لعدم الدليل كذلك يحتمل عقلا أن يحصل له الدليل على ماجزم به قبل عروض شبهة ولعل هذا الاحتمال أقوى وأقرب إلى الوقوع *

وإذا أحطت خبرا بجميع ماذكرنا علمت أن الاستدلال بقوله تعالى : (فاعلم أنه لااله الاالله) على وجوب النظر فيه نظر لتوقفه على صحة قولهم : إن العلم لايحصل إلا بالنظر وقد سمعت مافيه . ويقوى ذلك إذا قلنا: إن علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحدانية ضرورى اذ يكون المراد الأمر بالثبات والاستمرار على ماهو صلى الله تعالى عليه وسلم فيه من اجتناب مايخل بالعلم ، وقد يقال : يجوز أن يكون الاستدلال نظرا الى ظاهر اللفظ من حيث انه أمر بالعلم بالوحدانية فلا بد أن يكون مقدورا بنفسه أو باعتبار مايحصل هومنه ، وحيث انتفى كونه مقدورا بنفسه تعين كونه مقدورا باعتبار مايحصل هو منه ، والظاهر أنه النظر *

وأنت تعلم أنه ان كان التقليد سببا من أسباب العلم أيضا لم يتم هذا وان لم يكن سببا تم فتأمل ، ثم اعلم أن النظر الذى قالوا به فى الأصول الاعتقادية أعم من النظر فى الأدلة العقلية والنظر فى الأدلة السمعية ، فان منها ما ثبت بالسمع كالأمور الأخروية ومدخل العقل فيها ليس الا بانها أمور ممكنة أخبر الصادق بوقوعها وكل ممكن أخبر الصادق بوقوعه واقع فتلك الأمور واقعة ، وأما النظر فى معرفة الله تعالى - أعنى التصديق بوجوده تعالى وصفاته العلا - فقيل: يتعين أن يكون المراد به النظر فى الأدلة العقلية فقط ، ولايجوز أن يكون النظر فى الأدلة السمعية طريقا اليها لاستلزامه الدور . وفى الجواب العتيد الدور لازم لكن لامطلقا بل بالنسبة إلى كل مطلوب يتوقف العلم بصدق الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على العلم به ، وذلك لأن النظر فى الأدلة السمعية انما يكون طريقا الى المعرفة اذا كانت صادقة عند الناظر فيها ، وصدقها فى علم الناظر موقوف على علمه بان هذا الذى يدعى أنه رسول الله الذى جاء بها (١) صادقا فى دعواه الرسالة . وعلمه بذلك

(١) قوله : الذى جاء بها صادقا كذا فى النسخ

موقوف على العلم بأن الله تعالى قد أظهر المعجزات على يده تصديقا له فى دعواه وعلمه بذلك موقوف على العلم بأن ثمت الها على صفة يمكن بها أن يبعث رسولا ككونه حيا عالما مريدا قادرا وهو من معرفة الاله سبحانه فلو استفدنا العلم بوجود الله تعالى وبتلك الصفات من الدلائل السمعية الموقوفة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لزم الدور كما ترى . نعم اذا قيل : ان المكلف بعد ما آمن بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واعتقد اعتقادا جازما بصدقه فى جميع ماجاء به من عند الله تعالى باى وجه كان ذلك الجزم بالضرورة أو بالنظر أو بالتقليد فله أن يأخذ عقيدته من القرآن من غير تأويل ولاميل من غير أن ينظر فى دليل عقلى كان ذلك كلاما صحيحا لاغبار عليه ، ولا يلزم منه تحصيل للحاصل بالنسبة إلى ماحصله أولا من المسائل التي يتوقف عليها صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لأن التحصيل الثانى من حيث أن الجائى بدلائلها صادق فيها والتحصيل الاول كان بالنظر العقلى من غير اعتبار صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فاختلفت الحيثية فليفهم والله تعالى أعلم *

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ١٩ ﴾ فى الآخرة، وخص المتقلب بالدنيا والمثوى بالآخرة لأن كل أحد متحرك فى الدنيا دائما نحو معاده غير قار وفى الآخرة مقيم لاحركة له نحو دار وراءها ، والمراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزائه وعقابه سبحانه أو الترغيب فى امتثال ما يأمرهم جل شانه به والترهيب عما ينهاهم عز وجل عنه على طريق الكناية ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : متقلبكم تصرفكم فى حياتكم الدنيا ومثواكم فى قبوركم وآخرتكم ، وقال عكرمة : متقلبكم فى أصلاب الآباء الى أرحام الامهات ومثواكم اقامتكم فى الارض، وقال الطبرى : وغيره : متقلبكم تصرفكم فى يقظتكم ومثواكم منامكم ، وقيل : متقلبكم فى معايشكم ومتاجركم ومثواكم حيث تستقرون من منازلكم ، وقيل: متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار *

واختار أبو حيان عمومهما فى كل متقلب وفى كل اقامة ، ونحوه ما قيل : المراد يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه سبحانه شيء منها *

وقرأ ابن عباس (منقلبكم) بالنون ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ حرصا على الجهاد لما فيه من الثواب الجزيل فالمراد بهم المؤمنون الصادقون ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى هلا أنزلت سورة يؤمر فيها بالجهاد - فلولا - تحضيضية ، وعن ابن مالك أن (لا) زائدة والتقدير لو أنزلت سورة وليس بشيء *

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أى بطريق الامر به ، والمراد - بمحكمة - مبينة لاتشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال ، وفسرها الزمخشرى بغير منسوخة الاحكام . وعن قتادة كل سورة فيها القتال فهى محكمة وهو أشد القرآن على المنافقين وهذا امر استقرأه قتادة من القرآن لابخصوصية هذه الآية والمتحقق أن آيات القتال غير منسوخة وحكمها باق الى يوم القيامة . وقيل: محكمة بالحلال والحرام *

وقرئ (نزلت) سورة بالبناء للفاعل من نزل الثلاثى المجرد ورفع (سورة) على الفاعل *

وقرأ زيد بن على (نزلت) كذلك الا أنه نصب (سورة محكمة) ، وخرج ذلك على كون الفاعل ضمير السورة ، و (سورة محكمة) نصب على الحال . وقرأ هو . وابن عمير (وذكر) مبنيا للفاعل وهو ضميره تعالى

(القتال) بالنصب على انه مفعول به ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى نفاق، وقيل : ضعف فى الدين ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى نظر المحتضر الذى لا يطارف بصره ، والمراد تشخص أبصارهم جبنا وهلعا ، وقيل: يفعلون ذلك من شدة العداوة له عليه الصلاة والسلام، وقيل: من خشية الفضيحة فانهم ان تخلفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم ، وقال الزمخشرى: كانوا يدعون الحرص على الجهاد و يتمنونه بألسنتهم و يقولون : لولا انزلت سورة فى معنى الجهاد فاذا أنزلت وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقط فى أيديهم كقوله تعالى: (فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس) والظاهر ما ذكرناه أولا من أن القائلين هم الذين أخلصوا فى ايمانهم وانما عرا المنافقين ماعرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم ، وقد جوز هو أيضا ارادة الخاص من الذين آمنوا لكن كلامه ظاهر فى ترجح ما ذكره أولا عنده والظاهر ان فى الكلام عليه اقامة الظاهر مقام المضمر، وجوز أن يكون المطلوب فى قوله تعالى: (لولا أنزلت سورة) انزال سورة مطلقا حيث كانوا يستأنسون بالوحى و يستوحشون اذا أبطأ ، وروى نحوه عن ابن جريج . أخرج ابن المنذر عنه أنه قال فى الآية: كان المؤمنون يشتاقون الى كتاب الله تعالى والى بيان ما ينزل عليهم فيه فاذا نزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يامحمد المنافقين ينظرون اليك الخ *

﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ٢٠ ﴾ تهديد ووعيد على ماروى عن غير واحد، وعن أبى على ان (أولى) فيه علم لعين الويل مبنى على زنة أفعل من لفظ الويل على القلب وأصله أويل وهو غير منصرف للعلمية والوزن، فالكلام مبتدأ وخبر *

واعترض بان الويل غير متصرف فيه ، ومثل يوم أيوم مع انه غير منقاس لا يفرد عن الموصوف البتة، وان القلب خلاف الاصل لا يرتكب الا بدليل، وان علم الجنس شىء خارج عن القياس مشكل التعقل خاصة فيما نحن فيه، ثم قيل: ان الاشتقاق الواضح من الولى بمعنى القرب كما فى قوله :

تكلفنى ليلى وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب

يرشد الى انه للتفضيل فى الأصل غلب فى قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل: هلا كا أولى لهم بمعنى أهلكهم الله تعالى هلاكا أقرب لهم من كل شر وهلاك، وهذا كما غلب بعدا وسحقا فى الهلاك، وهو على هذا منصوب على أنه صفة فى الاصل لمصدر محذوف وقد أقيم مقامه والجار متعلق به . وفى الصحاح عن الاصمعى أولى له قاربه ما يهلكه أى نزل به وأنشد *

فعادى بين هاديتين منها ... وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد، قال ثعلب: ولم يقل أحد فى (أولى) أحسن مما قاله الاصمعى، وعلى هذا هو فعل مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق، وقريب منه ما قيل: إنه فعل ماض وفاعله ضميره عز وجل واللام مزيدة أى أولاهم الله تعالى ما يكرهون أو غير مزيدة أى أدنى الله عز وجل الهلاك لهم، والظاهر زيادة اللام على ماسمعت عن الاصمعى، ومن فسره بقارب جوز الامرين، وقيل: هو اسم فعل والمعنى وليهم شر بعد شر، وقيل: هو فعلى من آل بمعنى رجع لا أفعل من الولى فهو فى الاصل دعاء عليهم بان يرجع أمرهم الى الهلاك، والمراد أهلكهم الله تعالى الا أن التركيب مبتدأ وخبر، وقال الرضى: هو علم للوعيد من وليه الشر أى قربه، والتركيب مبتدأ وخبر أيضا. واستدل بما حكى أبو زيد من قولهم: اولاة بتاء التأنيث على أنه ليس بافعل تفضيل ولا أفعل

فعلى وانه علم وليس بفعل ثم قال : بل هو مثل أرمل وأرملة اذا سمى بهما ولذا لم ينصرف ، وليس اسم فعل أيضا بدليل أولاة فى تأنيثه بالرفع يعنى انه معرب ولو كان اسم فعل كان مبنيا مثله. وتعقب بأنه لامانع من كون أولاة لفظا آخر بمعناه فلا يرد من ذلك على قائلي ما تقدم أصلا، وجاء أول أفعل تفضيل وظرفا كقبل وسمع فيه أولة كما نقله أبو حيان ، وقيل: الاحسن كونه أفعل تفضيل بمعنى أحق وأحرى وهو خبر لمبتدأ محذوف يقدر فى كل مقام بما يليق به والتقدير ههنا العقاب أولى لهم ، وروى ذلك عن قتادة ومال الى هذا القول ابن عطية ، وعلى جميع هذه الاقوال قوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ كلام مستقل محذوف منه احد الجزأين اما الخبر وتقديره خير لهم أو أمثل، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه. والخليل، واما المبتدأ وتقديره الامر أو أمرنا طاعة أى الامر المرضى لله تعالى طاعة، وقيل: أى أمرهم طاعة معروفة وقول معروف أى معلوم حاله أنه خديعة، وقيل: هو حكاية قولهم قبل الامر بالجهاد أى قالوا أمرنا طاعة ويشهد له قراءة أبى (يقولون طاعة وقول معروف) وذهب بعض الى أن (أولى) أفعل تفضيل مبتدأ و(لهم) صلته واللام بمعنى الباء (وطاعة) خبر كأنه قيل فأولى بهم من النظر اليك نظر المغشى عليه من الموت طاعة وقول معروف ، وعليه لا يكون كلاما مستقلا ولا يوقف على (لهم) ومما لا ينبغى أن يلتفت اليه ما قيل: ان (طاعة) صفة لسورة فى قوله تعالى (فاذا أنزلت سورة) والمراد ذات طاعة أو مطاعة . وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشىء لحيلولة الفصل الكثير بين الصفة والموصوف ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جد والجد أى الاجتهاد لأصحاب الأمر الا انه اسند اليه مجازا كما فى قوله تعالى: (ان ذلك من عزم الأمور) ومنه قول الشاعر: ٭ قد جدت الحرب بكم فجدوا ٭ والظاهر ان جواب (اذا) قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ وهو العامل فيها ولا يضر اقترانه بالفاء ولا تمنع من عمل ما بعدها فيما قبلها فى مثله كما صرحوا به ، وهذا نحو اذا جاء الشتاء فلو جئتنى لكسوتك، وقيل: الجواب محذوف تقديره فاذا عزم الأمر كرهوا أو نحو ذلك قاله قتادة . وفى البحر من حمل (طاعة وقول معروف) على انهم يقولون ذلك خديعة قدر فاذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا ، ولعل من يجعل القول السابق للمؤمنين فى ظاهر الحال وهم المنافقون جوز هذا التقدير أيضا ، وقدر بعضهم الجواب فاصدق وهو كما ترى، وأياما كان فالمراد فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد ولعلهم أظهروا الحرص عليه كالمؤمنين الصادقين ، وقيل: فى قولهم: (طاعة وقول معروف، وقيل: فى ايمانهم ﴿ لَكَانَ ﴾ أى الصدق ﴿ خَيْرًا لَهُمْ ٢١ ﴾ مما ارتكبوه وهذا مبنى على ما فى زعمهم من أن فيه خيرا والا فهو فى نفس الأمر لا خير فيه ٭

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ خطاب لأولئك الذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع، وهل للاستفهام والاصل فيه أن يدخل الخبر للسؤال عن مضمونه والانشاء الموضوع له عسى ما دل عليه بالخبر أى فهل يتوقع منكم وينتظر ﴿ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم فهو من الولاية والمفعول به محذوف وروى ذلك عن محمد بن كعب وأبى العالية والكلبى ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ تناحرا على الولاية وتكالبا على جيفة الدنيا والمتوقع كل من يقف على حالهم الا الله عز وجل اذ لا يصح منه سبحانه ذلك والاستفهام أيضا بالنسبة إلى غيره جل وعلا فالمعنى إنكم لما عهد منكم من الاحوال الدالة على الحرص على

الدنيا حيث أمرتم بالجهاد الذى هو وسيلة إلى ثواب الله تعالى العظيم فكرهتموه وظهر عليكم ماظهر أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف حالكم ياهؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض الخ *

وفسر بعضهم التولى بالاعراض عن الاسلام فالفعل لازم أى فهل عسيتم ان أعرضتم عن الاسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الافساد فى الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الارحام بمقاتلة بعض الاقارب بعضا ووأد البنات ، وتعقب بأن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لابد أن تكون محذوريته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب فى أن الاعراض عن الاسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة فى التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد، ويؤيد الأول قراءة بعض (وليتم) مبنيا المفعول وكذا قراءته عليه الصلاة والسلام على ماذكر فى البحر ورويت عن على كرم الله تعالى وجهه. ورويس. ويعقوب (توليتم) بالبناء للمفعول أيضا بناء على أن المعنى تولاكم الناس واجتمعوا على موالاتكم، والمراد كنتم فيهم حكاما ، وقيل : المعنى تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بافسادهم واستظر أبو حيان تفسيره بالاعراض إلا أنه قال: المعنى إن اعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى فى القتال أن تفسدوا فى الارض بعدم معونة أهل الاسلام على أعدائهم وتقطعوا أرحامكم لأن من ارحامكم كثيرا من المسلمين فاذا لم تعينوهم قطعتم مابينكم وبينهم من الرحم *

وتعقب بأن حمل الافساد على الافساد بعدم المعونة فيه خفاء ، وكذا الاتيان بان عليه دون إذا من حيث أن الاعراض عن امتثال أمر الله تعالى فى القتال كالمحقق من اولئك المنافقين فتأمل، و (أن تفسدوا) خبر عسى. و (ان توليتم) اعتراض، وجواب ان محذوف يدل عليه ماقبله، وزعم بعضهم أن الاظهر جعل (ان توليتم) حالا مقدرة، وفيه أن الشرط بدون الجواب لم يعهد وقوعه حالا فى غير أن الوصلية وهى لا تفارق الواو، والحاق الضمائر بعسى كما فى سائر الافعال المتصرفة لغة أهل الحجاز ، وبنو تميم لا يلحقونها به ويلتزمون دخوله على أن والفعل فيقولون الزيدان عسى أن يقوما والزيدون عسى أن يقوموا ، وذكر الامام هاتين اللغتين ثم قال : وأما قول من قال : عسى أنت تقوم وعسى أنا أقوم فدون ماذكرنا للتطويل الذى فيه فان كان مقصوده حكاية لغة ثالثة هى انفصال الضمير فنحن لا نعلم أحداً من نقلة اللسان العربى ذكرها وإن كان غير ذلك فليس فيه كثير جدوى *

وقرأ نافع (عسيتم) بكسر السين المهملة، وهو غريب. وقرأ أبو عمرو فى رواية. وسلام. ويعقوب. وأبان. وعصمة. (تقطعوا) بالتخفيف مضارع قطع، والحسن (تقطعوا) بفتح التاء والقاف وشد الطاء. وأصله تتقطعوا بتاءين حذفت احداهما ونصبوا (أرحامكم) على اسقاط الحرف أى فى أرحامكم لأن تقطع لازم ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ايذانا بأن ذكر هناتهم أوجب اسقاطهم عن درجة الخطاب ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى أبعدهم من رحمته عز وجل ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه لسوء اختيارهم ﴿ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ٢٣ ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الانفس والآفاق وجاء التركيب (فأصمهم) ولم يأت فأصم آذانهم كما جاء (وأعمى أبصارهم) أو وأعماهم كما جاء فاصمهم، قيل: لأن الاذن لو أصيبت بقطع أو قلع لسمع الكلام فلم يحتج إلى ذكر الاذن والبصر وهو العين لو أصيب لامتنع الابصار فالعين لها مدخل فى الرؤية والاذن لا مدخل لها فى السمع انتهى وهو كما ترى *

وقال الخفاجي : لأنه إذا ذكر الصمم لم يبق حاجة الى ذكر الآذان ، وأما العمى فلشيوعه فى البصر

والبصيرة حتى قيل: انه حقيقة فيهما وهو ظاهر ما فى القاموس فاذا كان المراد أحدهما حسن تقييده *

وقيل فى وجه ذلك بناء على كون العمى حقيقة فيما كان فى البصر ان نحو أعمى الله أبصارهم بحسب الظاهر من باب أبصرته بعينى وهو يقال فى مقام يحتاج الى التأكيد، ولما كان أولئك الذين حكى حالهم فى أمر الجهاد غير ظاهر إعماؤهم ظهور إصمامهم كيف وفى الآيات السابقة ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن وهو من آثار إصمامهم وليس فيها ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئية المنصوبة فى الانفس والآفاق الذى هو من آثار إعمائهم ناسب أن يسلك فى كل من الجملتين ما سلك مع ما فى سلوكه فى الاخير من رعاية الفواصل وهو أدق مما قبل، هذا والارحام جمع رحم بفتح الراء وكسر الحاء وهى على ما فى القاموس القرابة أو أصلها وأسبابها، وقال الراغب: الرحم رحم المرأة أى بيت منبت ولدها ووعاؤه ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة. ويقال للاقارب ذو ورحم كما يقال لهم ارحام، وقد صرح ابن الاثير بأن ذا الرحم يقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ويطلق فى الفرائض على الاقارب من جهة النساء، والمذكور فى كتبها تفسيره بكل قريب ليس بذى سهم ولا عصبة وعدوا من ذلك أولاد الاخوات لابوين أو لأب وعمات الآباء وظاهر كلام الأئمة فى قوله عليه الصلاة والسلام من ملك ذا رحم محرم فهو حر دخول الابوين والولد فى ذى الرحم لغة حيث أجمعوا على انهم يعتقون على من ملكهم لهذا الخبر وان اختلفوا فى عتق غيرهم، وصرح ابن حجر الهيثمى فى الزواجر بأن الاولاد من الارحام وظاهر عطف الاقربين على الوالدين فى الآية يقتضى عدم دخولهما فى الاقارب فلا يدخلون فى الارحام لأنهم كما قالوا الاقارب، وكلام فقهائنا نص فى عدم دخول الوالدين والولد فى ذلك حيث قالوا: اذا أوصى لاقاربه أو لذوى قرابته أو لأرحامه فهى للاقرب فالاقرب من كل ذى رحم محرم ولا يدخل الوالدان والولد، وأما الجد وولد الولد فنقل أبو السعود عن العلامة قاسم عن البدائع أن الصحيح عدم دخولهما، واختاره فى الاختيار وعلله بأن القريب من يتقرب الى غيره بواسطة غيره وتكون الجزئية بينهما منعدمة، وفى شرح الحموى أن دخولهما هو الاصح. وفى متن المواهب وادخل أى محمد الجد والحفدة وهو الظاهر عنهما، وذكر ان مثل الجد الجدة وقد يقال: إن عدم دخول الوالدين والولد فى ذلك وكذا الجد والحفدة عند من يقول بعدم دخولهم ليس لأن اللفظ لا يصدق عليهم لغة بل لأنه لا يصدق عليهم عرفا وهم اعتبروا العرف كما قال الطحاوى فى أكثر مسائل الوصية. وفى جامع الفصولين أن مطلق الكلام فيما بين الناس ينصرف الى المتعارف، وما ذكره فى المعراج من خبر من سمى والده قريبا عقه لا يدل على أنه ليس قريبا لغة بل هو بيان حكم شرعى مبناه أن فى ذلك ايذاء للوالد وحطا من قدره عرفا، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يكره ذلك، وأمر العطف فى الآية الكريمة سهل لجواز عطف العام على الخاص كعطف الخاص على العام، فالذى يترجح عندى أن الارحام كما صرحوا به الاقارب بالقرابة الغير السببية والمراد بهم ما يقابل الأجانب ويدخل فيهم الأصول والفروع والحواشى من قبل الأب أو من قبل الام وحرمة قطع كل لا شك فيها لأنه على ما قلنا رحم، والآية ظاهرة فى حرمة قطع الرحم. وحكى القرطبى فى تفسيره اتفاق الامة على حرمة قطعها ووجوب صلتها، ولا ينبغى التوقف فى كون القطع كبيرة، والعجب من الرافعى عليه الرحمة كيف توقف فى قول صاحب الشامل: انه من الكبائر، وكذا تقرير النووى قدس سره له على توقفه، واختلف فى المراد بالقطيعة فقال أبو زرعة: ينبغى أن تختص بالاساءة، وقال غيره: هى ترك

الاحسان ولو بدون اساءة لأن الاحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطة بينهما ، والصلة ايصال نوع من أنواع الاحسان كما فسرها بذلك غير واحد فالقطيعة ضدها فهي ترك الاحسان . ونظر فيه الهيثمي بناء على تفسير العقوق بأن يفعل مع أحد أبويه ما لو فعله مع أجنبي كان محرما صغيرة فينتقل بالنسبة الى أحدهما كبيرة وان الأبوين أعظم من بقية الاقارب ثم قال: فالذي يتجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحم أن المراد بالاول أن يفعل مع أحد الابوين ما يتأذى به فان كان التأذى ليس بالهين عرفا كان كبيرة وان لم يكن محرما لو فعله مع الغير وبالثانى قطع ما ألف القريب منه من سابق الوصلة والاحسان بغير عذر شرعى لأن قطع ذلك يؤدى الى ايحاش القلوب وتأذيها، فلو فرض أن قريبه لم يصل اليه احسان ولا اساءة قط لم يفسق بذلك لأن الابوين إذا فرض ذلك فى حقهما من غير أن يفعل معهما ما يقتضى التأذى العظيم لغناهما مثلا لم يكن كبيرة فأولى بقية الاقارب ، ولو فرض أن الانسان لم يقطع عن قريبه ماألفه منه من الاحسان لكنه فعل معه محرماً صغيرة أو قطب فى وجهه أو لم يقم له فى ملأ ولاعبأ به لم يكن ذلك فسقا بخلافه مع أحد الأبوين لأن تأكد حقهما اقتضى أن يتميزا على بقيـــة الأقارب بما لا يوجد نظيره فيهم وعلى ضبط الثانى بما ذكرته فلا فرق بين أن يكون الاحسان الذى ألفه منه قريبه مالا أو مكاتبة أو مراسلة أو زيارة أو غير ذلك فقطع ذلك كله بعد فعله لغير عذر كبيرة ، وينبغى أن يراد بالعذر فى المال فقد ماكان يصله به أو تجدد احتياجه اليه أو أن يندبه الشارع إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوج أو أصلح ، فعدم الاحسان إلى القريب أو تقديم الأجنبى عليه لهذا العذر يرفع عنه وإن انقطع بسبب ذلك ماألفه منه القريب لأنه إنما راعى أمر الشارع بتقديم الأجنبى عليه، وواضح أن القريب لو ألف منه قدرا معينا من المال يعطيه إياه كل سنة مثلا فنقصه لا يفسق بذلك بخلاف مالو قطعه من أصله لغير عذر، وأما عذر الزيارة فينبغى ضبطه بعذر الجمعة الجامع أن كلا فرض عين وتركه كبيرة ، وأما عذر ترك المكاتبة والمراسلة فهو أن لا يجد من يثق به فى أداء مايرسله معه ، والظاهر أنه إذا ترك الزيارة التى ألفت منه فى وقت مخصوص لعذر لا يلزمه قضاؤها فى غير ذلك الوقت، والأولاد والأعمام من الارحام وكذ الخالة فيأتى فيهم وفيها ماتقرر من الفرق بين قطعهم وعقوق الوالدين ، وأما قول الزركشى: صح فى الحديث أن الخالة بمنزلة الأم وأن عم الرجل صنو أبيه وقضيتهما أنهما مثل الأب والام حتى فى العقوق فبعيد جداً ويكفى مشابهتهما فى أمر ما كالحضانة تثبت للخالة كما تثبت للام وكذا المحرمية وكالاكرام فى العم والمحرمية وغيرهما ماذكر انتهى المراد منه ، ولو قيل: إن الصغيرة تعد كبيرة لو فعلت مع القريب لكنها دون مالو فعلت مع أحد الأبوين لم يبعد عندى لتفاوت قبح السيئات بحسب الاضافات بل لا يبعد على هذ أن يكون قبح قطع الرحم متفاوتا باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع ومتى سلم التفاوت فليقل به فى العقوق ويكون عقوق الأم أقبح من عقوق الأب وكذا عقوق الولد الذى يعبأ به أقبح من عقوق الولد الذى لا يعبأ به ويتفرع من ذلك مايتفرع مما لا يخفى على فقيه. واستدل بالآية عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على منع بيع أم الولد. روى الحاكم فى المستدرك وصححه. وابن المنذر عن بريدة قال: كنت جالسا عند عمر إذ سمع صائحا فسأل فقيل: جارية من قريش تباع أمها فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فهل تعلمونه كان مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم القطيعة قالوا: لا قال: فانها قد أصبحت فيكم فاشية ثم قرأ (فهل عسيتم إن توليتم أن

تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ثم قال: وأى قطيعة أقطع من أن تباع أم امرىء فيكم قالوا فاصنع مابدالك فكتب فى الآفاق أن لاتباع أم حر فانها قطيعة رحم وانه لايحل واستدل بها أيضا على جواز لعن يزيد عليه من الله تعالى مايستحق نقل البرزنجى فى الاشاعة والهيثمى فى الصواعق إن الامام أحمد لما سأله ولده عبدالله عن لعن يزيد قال كيف لايلعن من لعنه الله تعالى فى كتابه فقال عبد الله قد قرأت كتاب الله عز وجل فلم اجد فيه لعن يزيد فقال الامام ان الله تعالى يقول: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله) الآية وأى فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد انتهى *

وهو مبنى على جواز لعن العاصى المعين من جماعة لعنوا بالوصف، وفى ذلك خلاف فالجمهور، على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقا كان أو ذميا حيا كان أو ميتا ولم يعلم موته على الكفر لاحتمال أن يختم له أوختم له بالاسلام بخلاف من علم موته على الكفر كأبى جهل *

وذهب شيخ الاسلام السراج البلقينى إلى جواز لعن العاصى المعين لحديث الصحيحين «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجىء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفى رواية «إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» واحتمال أن يكون لعن الملائكة عليهم السلام اياها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا: لعن الله من باتت مهاجرة فراش زوجها بعيد وإن بحث به معه ولده الجلال البلقينى *

وفى الزواجر لو استدل لذلك بخبر مسلم «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بحمار وسم فى وجهه فقال: لعن الله من فعل هذا» لكان أظهر إذ الاشارة بهذا صريحة فى لعن معين إلا أن يؤول بأن المراد الجنس وفيه مافيه انتهى *

وعلى هذا القول لا توقف فى لعن يزيد لكثرة أوصافه الخبيثة وارتكابه الكبائر فى جميع أيام تكليفه ويكفى مافعله أيام استيلائه بأهل المدينة ومكة فقد روى الطبرانى بسند حسن «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل منه صرف ولا عدل» والطامة الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاه بقتل الحسين على جده وعليه الصلاة والسلام واستبشاره بذلك وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإن كانت تفاصيله آحادا، وفى الحديث «ستة لعنتهم(١) - وفى رواية - لعنهم الله وكل نبى مجاب الدعوة المحرف لكتاب الله - وفى رواية - الزائد فى كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله والمستحل من عترتى والتارك لسنتى» وقد جزم بكفره وصرح بلعنه جماعة من العلماء منهم الحافظ ناصر السنة ابن الجوزى وسبقه القاضى أبو يعلى، وقال العلامة التفتازانى: لانتوقف فى شأنه بل فى إيمانه لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه، وممن صرح بلعنه الجلال السيوطى عليه الرحمة وفى تاريخ ابن الوردى . وكتاب الوافى بالوفيات أن السبى لما ورد من العراق على يزيد خرج فلقى الأطفال والنساء من ذرية على . والحسين رضى الله تعالى عنهما والرؤس على أطراف الرماح وقد أشرفوا على ثنية جيرون فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ... تلك الرؤس على شفا جيرون
نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديونى

---

(١) قوله «ستة لعنتهم» كذا فى النسخ والمعدود فيها خمس سقط منها «والمستحل لحرم الله»

يعنى أنه قتل بمن قتله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر كجده عتبة وخاله ولد عتبة وغيرهما وهذا كفر صريح فاذا صح عنه فقد كفر به ومثله تمثله بقول عبد الله بن الزبعرى قبل اسلامه * ليت أشياخى * الأبيات ، وأفتى الغزالى عفا الله عنه بحرمة لعنه وتعقب السفارينى من الحنابلة نقل البرزنجى والهيثمى السابق عن أحمد رحمه الله تعالى فقال: المحفوظ عن الامام أحمد خلاف مانقلا ، ففى الفروع مانصه ومن أصحابنا من أخرج الحجاج عن الاسلام فيتوجه عليه يزيد ونحوه ونص أحمد خلاف ذلك وعليه الاصحاب، ولايجوز التخصيص باللعنة خلافا لأبى الحسين. وابن الجوزى. وغيرهما ، وقال شيخ الاسلام : يعنى والله تعالى أعلم ابن تيمية ظاهر كلام أحمد الكراهة ، قلت : والمختار ماذهب اليه ابن الجوزى . وأبو حسين القاضى. ومن وافقهما انتهى كلام السفارينى . وأبو بكر بن العربى المالكى عليه من الله تعالى مايستحق أعظم الفرية فزعم أن الحسين قتل بسيف جده صلى الله تعالى عليه وسلم وله من الجهلة موافقون على ذلك (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) *

قال ابن الجوزى: عليه الرحمة فى كتابه السر المصون من الاعتقادات العامة التى غلبت على جماعة منتسبين إلى السنة أن يقولوا: ان يزيد كان على الصواب وأن الحسين رضى الله تعالى عنه أخطأ فى الخروج عليه ولو نظروا فى السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وألزم الناس بها ولقد فعل فى ذلك كل قبيح ثم لو قدرنا صحة عقد البيعة فقد بدت منه بوادر كلها توجب فسخ العقد ولا يميل إلى ذلك الا كل جاهل عامى المذهب يظن أنه يغيظ بذلك الرافضة . هذا ويعلم من جميع ماذكره اختلاف الناس فى أمره فنهم من يقول: هو مسلم عاص بما صدر منه مع العترة الطاهرة لكن لايجوز لعنه ، ومنهم من يقول: هو كذلك ويجوز لعنه مع الكراهة أو بدونها ومنهم من يقول: هو كافر ملعون ، ومنهم من يقول: إنه لم يعص بذلك ولا يجوز لعنه وقائل هذا ينبغى أن ينظم فى سلسلة أنصار يزيد وأنا أقول: الذى يغلب على ظنى أن الخبيث لم يكن مصدقا برسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأن مجموع مافعل مع أهل حرم الله تعالى وأهل حرم نبيه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيبين الطاهرين فى الحياة وبعد الممات وماصدر منه من المخازى ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من القاء ورقة من المصحف الشريف فى قذر ، ولا أظن أن امره كان خافيا على أجلة المسلمين إذ ذاك ولكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم الا الصبر ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ولو سلم أن الخبيث كان مسلما فهو مسلم جمع من الكبائر مالا يحيط به نطاق البيان ، وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين ولو لم يتصور أن يكون له مثل من الفاسقين ، والظاهر أنه لم يتب ، واحتمال توبته أضعف من إيمانه ، ويلحق به ابن زياد . وابن سعد . وجماعة فلعنة الله عز وجل عليهم أجمعين ، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال اليهم إلى يوم الدين مادمعت عين على أبى عبد الله الحسين ، ويعجبنى قول شاعر العصر ذو الفضل الجلى عبد الباقى افندى العمرى الموصلى وقد سئل عن لعن يزيد اللعين :

يزيد على لعنى عريض جنابه ... فاغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضليل فليقل: لعن الله عز وجل من رضى بقتل

الحسين ومن آذى عترة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بغير حق ومن غصبهم حقهم فانه يكون لاعناً له لدخوله تحت العموم دخولا أوليا فى نفس الأمر ، ولا يخالف أحد فى جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربى المار ذكره وموافقيه فانهم على ظاهر مانقل عنهم لايجوزون لعن من رضى بقتل الحسين رضى الله تعالى عنه ، وذلك لعمرى هو الضلال البعيد الذى يكاد يزيد على ضلال يزيد ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أى لا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤ ﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر اليها وانكشاف الأمر لها فكأنه قيل : أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل اليها فتكون أم متصلة على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعض اختياره ٭

وذهب أبو حيان . وجماعة إلى أنها منقطعة ومافيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر ، والهمزة للتقرير ، وتنكير القلوب لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها فى القساوة والجهالة كأنه قيل : على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القساوة وقيل : لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون فتنكيرها للتبعيض أو للتنويع كما قيل ، وإضافة الأقفال اليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة ، وقرىء (إقفالها) بكسر الهمزة ، وهو مصدر من الافعال و(أقفلها) بالجمع على أفعل ٭

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم ﴾ أى رجعوا الى ما كانوا عليه من الكفر ، قال ابن عباس . وغيره : نزلت فى منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم ، وفى إرشاد العقل السليم هم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الاحوال فانهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة القاهرة ٭

وأخرج عبد الرزاق . وجماعة عن قتادة أنه قال : هم أعداء الله تعالى أهل الكتاب يعرفون بعث النبي ﷺ ويجدونه مكتوبا فى التوراة والانجيل ثم يكفرون به عليه الصلاة والسلام . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : (إن الذين ارتدوا) الخ اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم نبي ، والمختار ما تقدم ، وأياما كان فالموصول اسم ان وجملة قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ خبرها كقولك : ان زيدا عمرو مر به أى سهل لهم ركوب العظائم من السول بفتحتين وهو الاسترخاء استعير للتسهيل أى لعده سهلا هينا حتى لا يبالى به كأنه شبه بارخاء ما كان مشدودا ، وقيل : أى حملهم على الشهوات من السول وهو التمنى ، وأصله حملهم على سؤلهم أى ما يشتهونه ويتمنونه فالتفعيل للحمل على المصدر كغربه إذا حمله على الغربة الا أنهم جعلوا المصدر بمعنى اسم المفعول ، ونقل ذلك عن ابن السكيت ٭

واعترض بأن السول بمعنى التمنى من السؤال فهو مهموز والتسويل واوى ومعناه التزيين فلا مناسبة لا لفظا ولا معنى فالقول باشتقاق سول منه خطأ ، ورد بان السول من السؤال وله استعمالان فيكون مهموزا وهو المعروف ومعتلا يقال سال يسال كخاف يخاف وقالوا منه : يتساولان بالواو فيجوز كون التسويل من السول على هذه اللغة أو هو على المشهور خفف بقلب الهمزة ثم التزم ، ونظيره تدير من الدار لاستمرار

القلب فى ديار وكذلك تحيز لاستمرار القلب فى حيز ويكون مآل المعنى على هذا حملهم على الشهوات ه

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (سول لهم) مبنيا للمفعول وخرج ذلك على تقدير مضاف أى كيد الشيطان سول لهم، وجوز تقديره سول كيده لهم فحذف وقام الضمير المجرور مقامه فارتفع واستتر، قيل: وهو أولى لأنه تقدير فى وقت الحاجة ولا يخفى ان الاول أقل تكلفا ه

﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ٢٥ ﴾ أى ومد لهم الشيطان فى الامانى والآمال، ومعنى المد فيها توسيعها وجعلها ممدودة بنفسها أو بزمانها بأن يوسوس لهم بأنكم تنالون فى الدنيا كذا وكذا مما لا أصل له حتى يعوقهم عن العمل، وأصل الاملاء الابقاء ملاوة من الدهر أى برهة، ومنه قيل: المعنى وعدهم بالبقاء الطويل، وجعل بعضهم فاعل (أملى) ضميره تعالى، والمعنى أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، وفيه تفكيك لكن أيد بقراءة مجاهد. وابن هرمز. والاعمش وسلام. ويعقوب (واملى) بهمزة المتكلم مضارع أملى فان الفاعل حينئذ ضميره تعالى على الظاهر والاصل توافق القراءتين، وجوز أن يكون ماضيا مجهولا من المزيد سكن آخره للتخفيف كما قالوا فى بقى بقى بسكون الياء ه

وعلى الظاهر جوز أن تكون الواو للاستئناف وان تكون للحال ويقدر مبتدأ بعدها أى وأنا أملى لئلا يكون شاذا كقمت وأصك وجهه، وجوزت الحالية فى قراءة الجمهور أيضا على جعل الفاعل ضميره تعالى فحينئذ تقدر قد على المشهور. وقرأ ابن سيرين. والجحدرى. وشيبة. وأبو عمرو. وعيسى (وأملى) بالبناء للمفعول فلهم نائب الفاعل أى امهلوا ومد فى أعمارهم، وجوز أن يكون ضمير الشيطان والمعنى أمهل الشيطان لهم أى جعل من المنظرين إلى يوم القيامة لاجلهم ففيه بيان لاستمرار ضلالهم وتقبيح حالهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اشارة الى ماذكر من ارتدادهم لا إلى الاملاء كما نقل عن الواحدى ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئا منهما ليس مسببا من القول الآتى، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أى بسبب انهم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى المنافقين ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ هم بنو قريظة. والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبى عليه الصلاة والسلام مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسداً وطمعاً فى نزوله على أحد منهم ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى فى بعض اموركم وأحوالكم وهو ماحكى عنهم فى قوله تعالى: (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم) وقيل: فى بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: القائلون اليهود الكافرون به صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما وجدوا نعته الشريف فى كتابهم والمقول لهم المنافقون كان اليهود يعدونهم النصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقيل: القائلون أولئك اليهود والمقول لهم المشركون كانوا يعدونهم النصرة أيضاً اذا حاربوا. وتعقب كلا القولين بأن كفر اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم على رأى القائل بل من حيث إنكارهم بعثه عليه الصلاة والسلام وقد عرفوه كما عرفوا أبناءهم وآباءهم، ومنه يعلم مافى قول بعضهم: إن القائلين هم المنافقون واليهود والمقول لهم المشركون، وما فسرنا به الآية الكريمة مروى عن الحبر رضى الله تعالى عنه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ٢٦ ﴾ أى اخفاءهم مايقولونه لليهود أو كل قبيح ويدخل ذلك دخولا أوليا. وقرأ الجمهور (أسرارهم) بفتح الهمزة اى يعلم الاشياء التى يسرونها ومنها قولهم

هذا الذى اظهره سبحانه لتفضيحهم، وقال الامام: الاظهر ان يقال المراد يعلم سبحانه مافى قلوبهم من العلم بصدق رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه مالا يخفى، والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للوعيد، والفاء فى قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ اذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها، (وكيف) منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف كأنه قيل: يفعلون فى حياتهم مايفعلون من الحيل فكيف يفعلون اذا توفتهم الملائكة، وقيل: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فكيف حالهم أو حيلتهم اذا توفتهم الخ، وزعم الطبرى أن التقدير فكيف علمه تعالى بأسرارهم إذا توفتهم الخ، وليس بشىء، ووقت التوفى هو وقت الموت، والملائكة عليهم السلام ملك الموت وأعوانه. وقرأ الاعمش (توفاهم) بالالف بدل التاء فاحتمل أن يكون ماضيا وأن يكون مضارعا حذف منه أحد تاءيه والاصل تتوفاهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ٢٧﴾ حال من الملائكة، وجوز كونه حالا من ضمير (توفتهم) وضعفه أبوحيان، وهو على ماقيل تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وابراز لما يخافون منه ويجبنون عن القتال لأجله فان ضرب الوجوه والادبار فى القتال والجهاد مما يتقى، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه لا يتوفى أحد على معصية الا تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره، والكلام على الحقيقة عنده ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر وما ذلك الا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ *

والمراد بالوجه والدبر قيل العضوان المعروفان. أخرج ابن المنذر عن مجاهد انه قال: يضربون وجوههم واستاههم ولكن الله سبحانه كريم يكنى، وقال الراغب وغيره: المراد القدام والخلف، وقيل: وقت التوفى وقت سوقهم فى القيامة الى النار والملائكة ملائكة العذاب يومئذ، وقيل: هو وقت القتال والملائكة ملائكة النصر تضرب وجوههم ان ثبتوا وأدبارهم ان هربوا نصرة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكلا القولين كما ترى ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفى الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أى بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ مايرضاه عز وجل من الايمان والطاعات حيث كفروا بعد الايمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اخوانهم اليهود، وقيل: ما أسخط الله كتمان نعت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ورضوانه مايرضيه سبحانه من إظهار ذلك، وهو مبنى على ان ما تقدم اخبار عن اليهود وقد سمعت مافيه، ولما كان اتباع ما أسخط الله تعالى مقتضيا للتوجه ناسب ضرب الوجه وكراهة رضوانه سبحانه مقتضياً للاعراض ناسب ضرب الدبر ففى الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ ٢٨﴾ التى عملوها حال ايمانهم من الطاعات، وجوز ان يراد ماكان بعد من أعمال البر التى لو عملوها حال الايمان لانتفعوا بها *

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فصلت احوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدارا لما نعى عليهم بقوله تعالى: ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ٢٩﴾ فأم منقطعة وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشأن والجملة بعدها خبرها، والاضغان جمع ضغن وهو الحقد وقيده الراغب بالشديد وقد ضغن بالكسر وتضاغن القوم واضطغنوا أبطنوا الاحقاد، ويقال: اضطغنت الصبى إذا أخذته تحت حضنك وأنشد الاحمر *

* كأنه مضطغن صبيا * وفرس ضاغن لا يعطى ماعنده من الجرى الا بالضرب، وأصل الكلمة من الضغن وهو الالتواء والا عوجاج فى قوائم الدابة والقناة وكل شىء، قال بشر: كذات الضغن تمشى فى الرقاق * وأنشد الليث

ان قناتي من صليبات القنا　　ما زادها التثقيف الا ضغنا

والحقد فى القلب يشبه به. وقال الليث، وقطرب. الضغن العداوة قال الشاعر: *

قل لابن هند ما أردت بمنطق　　ساء الصديق وشيد الاضغانا

وهذا لاينافى الاول لأن الحقد العداوة لأمر يخفيه المرء فى قلبه، والاخراج مختص بالاجسام، والمراد به هنا الابراز أى بل أحسب الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين انه لن يبرز الله تعالى أحقادهم ويظهرها للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين فتبقى مستورة، والمعنى ان ذلك مما لايكاد يدخل تحت الاحتمال *

﴿ ولَوْ نَشَاءُ ﴾ اراءتك اياهم ﴿ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أى لعرفناكهم على ان الرؤية علمية ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ تفريع لمعرفته صلى الله تعالى عليه وسلم على تعريف الله عز وجل، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية على أن المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يعرفهم معرفة متفرعة على اراءته اياهم، والالتفات الى نون العظمة للايماء الى العناية بالاراءة، والسيما العلامة، والمعنى هنا على الجمع لعمومها بالاضافة لكنها أفردت للاشارة الى ان علاماتهم متحدة الجنس فكأنها شيء واحد أى فلعرفتهم بعلامات نسمهم بها، ولام (فلعرفتهم) كلام لأريناكهم الواقعة فى جواب لو لأن المعطوف على الجواب جواب، وكررت فى المعطوف للتأكيد، وأما التى فى قوله، تعالى: ﴿ ولَتَعْرِفَنَّهُم فى لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ فواقعة فى فى جواب قسم محذوف والجملة معطوفة على الجملة الشرطية (ولحن القول) أسلوب من أساليبه مطلقا، أو المائلة عن الطريق المعروفة كان يعدل عن ظاهره من التصريح الى التعريض والابهام، ولذا سمى خطأ الاعراب به لعدوله عن الصواب، وقال الراغب: اللحن صرف الكلام عن سننه الجارى عليه اما بازالة الاعراب أو التصحيف وهو المذموم وذلك أكثر استعمالا، واما بازالته عن التصريح وصرفه بمعناه الى تعريض وفحوى وهو محمود من حيث البلاغة، واليه أشار بقوله الشاعر عند أكثر الادباء. *

منطق صائب وتلحن أحيا　　نا وخير الحديث ماكان لحنا

وإياه قصد بقوله تعالى: (ولتعرفنهم فى لحن القول) وفى البحر يقال: لحنت له بفتح الحاء ألحن لحنا قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره، ولحنه هو بالكسر فهمه والحنته أنا اياه ولا حنت الناس فاطنتهم، وقيل: لحن القول الذهاب عن الصواب، وعن ابن عباس (لحن القول) هنا قولهم مالنا ان أطعنا من الثواب ولا يقولون ماعلينا ان عصينا من العقاب وكان هذا الذى ينبغى منهم، وقال بعض من فسره بالاسلوب المائل عن الطريق المعروفة: انهم كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح وكانوا أيضاً يتكلمون بما يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم اذا دعاهم المؤمنون الى نصرهم: انا معكم، وبالجملة انهم كانوا يتكلمون بكلام ذى دسائس وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يعرفهم بذلك، وعن أنس رضى الله تعالى عنه ماخفى بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيء من المنافقين كان عليه الصلاة والسلام يعرفهم بسيماهم ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق. وفى دعواه انه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعرفهم بسيماهم اشكال فان (لو) ظاهرها عدم الوقوع بل المناسب معرفتهم من لحن القول، وكأنه حمله على أنه وعد بالوقوع دال على الامتناع فيما سلف، ولقد صدق وعده واستشهد عليه بما اتفق فى بعض الغزوات، ولاتنحصر السيما بالكتابة

بل تكون بغيرها أيضاً مما يعرفهم به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما يعرف القائف حال الشخص بعلامات تدل عليه، وكثيرا مايعرف الانسان محبه ومبغضه من النظر ويكاد النظر ينطق بما في القلب، وقد شاهدنا غير واحد يعرف السني والشيعي بسمات في الوجه، وإن صح ان بعض الاولياء قدست أسرارهم كان يعرف البر والفاجر والمؤمن والكافر ويقول اشم من فلان رائحة الطاعة ومن فلان رائحة المعصية ومن فلان رائحة الايمان ومن فلان رائحة الكفر ويظهر الامر حسبما أشار فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتلك المعرفة اولى وأولى، ولعلها بعلامات وراء طور عقولنا، والنور المذكور في خبر «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى» متفاوت الظهور بحسب القابليات وللنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أتمه، وذكروا من علامات النفاق بغض على كرم الله تعالى وجهه *

فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ببغضهم على بن ابى طالب. وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري مايؤيده، وعندي ان بغضه رضى الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق فان آمنت بذلك فياليت شعرى ماذا تقول في يزيد الطريد أكان يحب عليا كرم الله تعالى وجهه أم كان يبغضه، ولا أظنك في مرية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه رضى الله تعالى عنه أشد البغض وكذا يبغض ولديه الحسن والحسين على جدهما وأبويهما وعليهما الصلاة والسلام كما تدل على ذلك الآثار المتواترة معنى، وحينئذ لامجال لك من القول بأن اللعين كان منافقا، وقد جاء في الاحاديث الصحيحة علامات للنفاق غير ماذكر كقوله عليه الصلاة والسلام: «علامات المنافق ثلاث» الحديث لكن قال العلماء هي علامات للنفاق العملي لا الايماني، وقيل: الحديث خارج مخرج التنفير عن اتصاف المؤمن المخلص بشيء منها لما أنها كانت إذ ذاك من علامات المنافقين. واستدل بقوله تعالى: (ولتعرفنهم في لحن القول) من جعل التعريض بالقذف موجبا الحد، ولايخفى حاله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ٣٠ ﴾ فيجازيكم عليها بحسب قصدكم وهذا على ماقيل وعد للمؤمنين وايذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين، وقيل: وعيد للمنافقين وإيذان لهم بأن المجزى عليه ما يقصدونه لاما يعرضون أو يورون به، واستظهر انه خطاب عام فهو وعد ووعيد، وحمل على العموم قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بالامر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ على مشاق التكاليف علما فعليا يتعلق به الجزاء، وفي معناه ماقيل: أي حتى يظهر علمنا، وقال ابن الحاجب في ذلك: العلم يطلق باعتبار الرؤية والشيء لا يرى حتى يقع يعني على المشهور وهو هنا بمعنى ذلك أو بمعنى المجازاة، والمعنى حتى نجازي المجاهدين منكم والصابرين ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ٣١ ﴾ فيظهر حسنها وقبيحها، والكلام كناية عن بلاء أعمالهم فان الخبر حسنه وقبيحه على حسب المخبر عنه فاذا تميز الحسن عن الخبر القبيح فقد تميز المخبر عنه وهو العمل كذلك، وهذا أبلغ من نبلو أعمالكم، والظاهر عموم الاخبار، وجوز كون المراد بها اخبارهم عن ايمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أن اضافتها للعهد أي ونبلو أخبار إيمانكم وموالاتكم فيظهر صدقها وكذبها. وقرأ أبو بكر الافعال الثلاثة المسندة الى ضمير العظمة بالياء، وقرأ رويس (ونبلو) بالنون وسكون الواو، والاعمش بسكونها وبالياء فالفعل مرفوع بضمة مقدرة بتقدير ونحن نبلو والجملة حالية، وجوز أن يكون منصوبا كما في قراءة الجمهور سكن للتخفيف كما في قوله: * أبى الله أن أسمو بام ولا أب *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ صاروا في شق غير شقه، والمراد

عادوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ لما شاهدوا من نعته عليه الصلاة والسلام فى التوراة أو بما ظهر على يديه ﷺ من المعجزات ونزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات وهم بنو قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر وقد تقدم ذكرهم ، وقيل : أناس نافقوا بعد ان آمنوا ﴿ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ ﴾ بكفرهم وصدهم ﴿ شَيْئًا ﴾ من الاشياء أو شيئاً من الضرر أو لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته شيئا ، وقد حذف المضاف لتعظيمه عليه الصلاة والسلام بجعل مضرته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى وفيه تفظيع مشاقته صلى الله تعالى عليه وسلم ه

﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ٣٢ ﴾ فى مكايدهم التى نصبوها فى ابطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم الا القتل والجلاء عن أوطانهم ونحو ذلك ، وجوز أن يراد أعمالهم التى عملوها فى دينهم يرجون بها الثواب ه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ٣٣ ﴾ قيل : إن بنى أسد أسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم منوا بذلك فنزلت فيهم هذه وقوله تعالى : (يمنون عليك أن اسلموا) ومن هنا قيل المعنى لا تبطلوا أعمالكم بالمن بالاسلام ، وعن ابن عباس بالرياء والسمعة وعنه أيضا بالشك والنفاق ، وقيل : بالعجب فانه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقيل : المراد بالاعمال الصدقات أى تبطلوها بالمن والأذى ، وقيل : لا تبطلوا طاعاتكم بمعاصيكم ، أخرج عبد بن حميد . وابن جرير . عن قتادة أنه قال فى الآية : من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحاً بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى ، وأخرج عبد بن حميد . ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة . وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ولفظ عبد ابن حميد فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم ، وأخرج ابن نصر . وابن جرير . وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال . كنا معاشر أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نرى أنه ليس شىء من الحسنات الا مقبولا حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا : قد هلك حتى نزلت هذه الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئا خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له ، واستدل المعتزلة بالآية على أن الكبائر تحبط الطاعات بل الكبيرة الواحدة تبطل مع الاصرار الاعمال ولو كانت بعدد نجوم السماء ، وذكروا فى ذلك من الاخبار ماذكروا . وفى الكشف لا بد فى هذا المقام من تحرير البحث بأن يقال : ان أراد المعتزلة أن نحو الزنا إذا عقب الصلاة يبطل ثوابها مثلا فهذا لا دليل عليه نقلا وعقلا بل هما متعادلان على ما دل عليه صحاح الاحاديث ، وكفى بقوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) حجة بالغة ، وإن أرادوا أن عقابه قد يكبر حتى لا يعاد له صغار الحسنات فهذا صحيح والكلام حينئذ فى تسميته أحباطا ، ولا بأس به لكن عندنا أن هذا الاحباط غير لازم وعندهم لازم ، وهو مبنى على جواز العفو وهى مسئلة

أخرى ، وأما الكبيرة التي تختص بذلك العمل كالعجب ونحو المن والاذى بعد التصدق فهي محبطة لا محالة اتفاقا، وعليه يحمل مانقل من الآثار ،ومن لا يسميه احباطا لأنه يجعله شرطا للقبول والاحباط أن يصير الثواب زائلا وهذا لا يتأتى إذا لم يثبت له ثواب فله ذلك، وهو أمر يرجع إلى الاصطلاح انتهى وهو من الحسن بمكان، واعادة الفعل في (وأطيعوا الرسول) للاهتمام بشأن اطاعته عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ امتنعوا عن الدخول في الاسلام وسلوك طريقه اوصدوا الناس عنه ﴿ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ٣٤ ﴾ نزلت في أهل القليب كما قيل، وحكمها عام كما قال غير واحد في كل من مات على كفره، وهو ظاهر على التفسير الأول لصدوا عن سبيل الله، وأما على التفسير الثاني له فقيل عليه: إن العموم مع تخصيص الكفر بصد الناس عن الاسلام محل نظر، ويفهم من كلام بعض الاجلة أن العموم لأن مدار عدم المغفرة هو الإستمرار على الكفر حسبما يشعر اعتباره قيدا في الكلام فتدبر . واستدل بمفهوم الآية بعض القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي إذا علمتم أن الله تعالى مبطل أعمالهم ومعاقبهم فهو خاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفا، فالفاء فصيحة في جواب شرط مفهوم مما قبله ، وقيل : هي لترتيب النهي على ماسبق من الامر بالطاعة ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ عطف على (تهنوا) داخل في حيز النهي أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خورا واظهارا للعجز فان ذلك اعطاء الدنية ، وجوز أن يكون منصوبا باضمار أن فيعطف المصدر المسبوك على مصدر متصيد مما قبله كقوله : لا تنه عن خلق وتأتي مثله ، واستدل ألكيا بهذا النهي على منع مهادنة الكفار الا عند الضرورة، وعلى تحريم ترك الجهاد الا عند العجز، وقرأ السلمي (وتدعوا) بتشديد الدال من ادعى بمعنى دعا ، وفي الكشاف ذكر لا في هذه القراءة ، ولعلى ذلك رواية أخرى ، وقرأ الحسن . وأبو رجاء . والاعمش : وعيسى. وطلحة . وحمزة . وأبو بكر (السلم) بكسر السين ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي الاغلبون، والعلو بمعنى الغلبة مجاز مشهور ، والجملة حالية مقررة لمعنى النهي مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ أي ناصركم فان كونهم الاغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة ﴿

وقال أبو حيان: يجوز أن يكونا جملتين مستأنفتين أخبروا أولا انهم الاعلون وهو اخبار بمغيب أبرزه الوجود ثم ارتقى إلي رتبة أعلى من التي قبلها وهي كون الله تعالى معهم ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ٣٥ ﴾ قال: ولن يظلمكم ، وقيل : ولن ينقصكم ، وقيل : ولن يضيعها، وهو كما قال أبو عبيد . والمبرد من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم أو سلبته ماله وذهبت به ، قال الزمخشري: وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد، فشبه اضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من فصيح الكلام ، وفيه هنا من الدلالة على مزيد لطف الله تعالى مافيه، ومنه قوله ﷺ: « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » والظاهر على ماذكره أنه لابد من تضمين وترته معنى السلب ونحوه ليتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه ، وفي الصحاح أنه من الترة وحمله على نزع الخافض أي جعلته موتوراً لم يدرك ثاره في ذلك كأنه نقصه فيه وجعله نظير دخلت البيت أي فيه وهو سديد أيضاً ﴿

وجوز بعضهم (يتر) ههنا متعديا لواحد و(أعمالكم) بدل من ضمير الخطاب أي لن يتر أعمالكم من ثوابها

والجملة قيل معطوفة على قوله تعالى : (معكم) وهى وإن لم تقع حالا استقلالا لتصديرها بحرف الاستقبال المنافى للحال على ماصرح به العلامة التفتازانى وغيره لكنه يغتفر فى التابع ما لا يغتفر فى غيره ، وقيل : المانع من وقوع المصدرة بحرف الاستقبال حالا مخالفته للسماع وإلا فلامانع من كونها حالا مقدرة مع أنه يجوز أن تكون (لن) لمجرد تأكيد النفى ، والظاهر أن المانعين بنوا المنع على المنافاة وإنها إذا زالت باعتبار أحد الأمرين فلامنع لكن قيل : إن الحال المقصود منها بيان الهيئة غير الحال الذى هو أحد الازمنة والمنافاة إنما هى بين هذا الحال والاستقبال . وهذا نظير ما قال بجوز و مجىء الجملة الماضية حالا بدون قد ، ومالذلك وماعليه فى كتب النحو ، وإذا جعلت الجملة قبل مستأنفة لم يكن إشكال فى العطف أصلا ه

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لا ثبات لها ولا اعتداد بها ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أى ثواب إيمانكم وتقوا كم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ٣٦ ﴾ عطف على الجزاء والاضافة للاستغراق ، والمعنى إن تؤمنوا لا يسألكم جميع أموالكم كما يأخذ من الكافر جميع ماله ، وفيه مقابلة حسنة لقوله تعالى : (يؤتكم أجوركم) كأنه قيل: يعطكم كل الاجور ويسألكم بعض المال وهو ماشرعه سبحانه من الزكاة ، وقول سفيان بن عيينة أى لا يسألكم كثيرا من أموالكم إنما يسألكم ربع العشر فطيبوا أنفسكم بيان لحاصل المعنى ، وقيل : أى لا يسألكم ماهو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله عز وجل وهو المالك لها حقيقة وهو جل شأنه المنعم عليكم بالانتفاع بها ، وقيل : أى لا يسألكم أموالكم لحاجته سبحانه اليها بل ليرجع انفاقكم اليكم ، وقيل : أى لا يسألكم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً من أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة كما قال تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) ووجه التعليق عليها غير ظاهر وفى بعضها أيضاً ما لا يخفى ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا ﴾ أى أموالكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدكم بطلب الكل فان الاحفاء والالحاف المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء يقال : أحفاه فى المسئلة اذا لم يترك شيئا من الالحاح ، وأحفى شاربه استأصله وأخذه أخذا متناهيا ، وأصل ذلك على ماقال الراغب : من أحفيت الدابة جعلته حافياً أى منسحج الحافر والبعير جعلته منسحج الفرسن من المشى حتى يرق ﴿ تَبْخَلُوا ﴾ جواب الشرط ، والمراد بالبخل هنا ترك الاعطاء إذ هو على المعنى المشهور أمر طبيعى لا يترتب على السؤال ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ٣٧ ﴾ أى أحقادكم لمزيد حبكم للمال وضمير (يخرج) لله تعالى ويعضده قراءة يعقوب . ورويت أيضا عن ابن عباس (ونخرج) بالنون مضمومة ، وجوز أن يكون للسؤال أو للبخل فانه سبب اخراج الأضغان والاسناد على ذلك مجازى ، وقرأ عبدالوارث عن أبى عمرو (ويخرج) بالرفع على الاستئناف ، وجوز جعل الجملة حالا بتقدير وهو يخرج وحكاها أبو حاتم عن عيسى ، وفى اللوامح عن عبد الوارث عن أبى عمرو (ويخرج) بالياء التحتية وفتحها وضم الراء والجيم (أضغانكم) بالرفع على الفاعلية ه

وقرأ ابن عباس . ومجاهد . وابن سيرين . وابن محيصن . وأيوب بن المتوكل . واليمانى (وتخرج) بتاء التأنيث ورفع (أضغانكم) ، وقرئ (ويخرج) بضم الياء التحتية وفتح الراء (أضغانكم) رفعا على النيابة عن الفاعل وهى

مروية عن عيسى الا أنه فتح الجيم باضمار أن فالواو عاطفة على مصدر متصيد أي يكن بخلكم واخراج أضغانكم﴿

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون بما تضمنه قوله تعالى : (ان يسألكموها) الخ، والجملة مبتدأ وخبر وكررت ها التنبيهية للتأكيد ، وقوله سبحانه: ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الخ استئناف مقرر ومؤكد لذلك لاتحاد محصل معناهما فان دعوتهم للانفاق هو سؤال الاموال منهم وبخل ناس منهم هو معنى عدم الاعطاء المذكور مجملا أولا أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين فان اسم الاشارة يكون موصولا مطلقا عند الكوفيين وأما البصريون فلم يثبتوا اسم الاشارة موصولا الا إذا تقدمه ما الاستفهامية باتفاق أو من الاستفهامية باختلاف، والانفاق في سبيل الله تعالى هو الانفاق المرضى له تعالى شأنه مطلقا فيشمل النفقة للعيال والاقارب والغزو واطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك وليس مخصوصا بالانفاق للغزو أو بالزكاة كما قيل﴿

﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ﴾ أي ناس يبخلون ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فلا يتعدى ضرر بخله الى غيرها يقال : بخلت عليه وبخلت عنه لأن البخل فيه معنى المنع ومعنى التضييق على من منع عنه المعروف والاضرار فناسب أن يعدى بعن للاول وبعلى للثاني ، وظاهر أن من منع المعروف عن نفسه فاضراره عليها فلا فرق بين اللفظين في الحاصل، وقال الطيبي: يمكن أن يقال يبخل عن نفسه على معنى يصدر البخل عن نفسه لأنها مكان البخل ومنبعه كقوله تعالى: (ومن يوق شح نفسه) وهو كما ترى ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ لا غيره عز وجل ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ الكاملون في الفقر فما يأمركم به سبحانه فهو لاحتياجكم الى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحكمة ايصالها بدون ذلك فان امتثلتم فلكم وان توليتم فعليكم، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴾ عطف على قوله سبحانه: (إن تؤمنوا) أي وإن تعرضوا عن الايمان والتقوى ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يخلق مكانكم قوما آخرين وهو كقوله تعالى: (يأت بخلق جديد) ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ٣٨ ﴾ في التولي عن الايمان والتقوى بل يكونون راغبين فيهما﴿

وثم للتراخي حقيقة أو لبعد المرتبة كما قيل، والمراد بهؤلاء القوم أهل فارس، فقد أخرج عبد الرزاق. وعبد ابن حميد. وابن جرير. وابن أبي حاتم. والطبراني في الاوسط. والبيهقي في الدلائل. والترمذي وهو حديث صحيح على شرط مسلم عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الآية (وان تتولوا) الخ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين أن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونون أمثالنا؟ فضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» ﴿

وجاء في رواية ابن مردويه عن جابر الدين بدل الايمان ، وقيل: هم الانصار، وقيل: أهل اليمن، وقيل: كندة. والنخع، وقيل: العجم، وقيل: الروم، وقيل: الملائكة وحمل القوم عليهم بعيد في الاستعمال، وحيث صح الحديث فهو مذهبي﴿

والخطاب لقريش أو لاهل المدينة قولان والظاهر انه للمخاطبين قبل والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم والله تعالى أعلم ﴿ ومما قاله بعض أرباب الاشارة في بعض الآيات ﴾ (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم) نصرة الله تعالى من العبد على وجهين صورة ومعنى ، اما نصرته تعالى في الصورة فنصرة دينه جل شأنه بايضاح الدليل وتبيينه وشرح فرائضه وسننه وإظهار معانيه وأسراره وحقائقه ثم بالجهاد عليه واعلاء كلمته وقمع أعدائه ، وأما نصرته في المعنى فبافناء الناسوت

فى اللاهوت، ونصرة الله سبحانه للعبد على وجهين أيضا صورة ومعنى، أما نصرته تعالى للعبد فى الصورة فبارسال الرسل وانزال الكتب واظهار المعجزات والآيات وتبيين السبل الى النعيم والجحيم، ثم بالامر بالجهاد الاصغر والاكبر وتوفيق السعى فيهما طلبا لرضاه عزوجل، وأما نصرته تعالى له فى المعنى فبافناء وجوده فى وجوده سبحانه بتجلى صفات جماله وجلاله (مثل الجنة التى وعد المتقون) يشير إلى جنة قلوب أرباب الحقائق الذين اتقوا عما سواه جل وعلا (فيها أنهار من ماء غير آسن) هو ماء الحياة الروحانية لم يتغير بطول المكث (وانهار من لبن) وهو العلم الحقانى الذى هو غذاء الارواح أو لبن الفطرة التى فطر الناس عليها (لم يتغير طعمه) بحموضة الشكوك والاوهام أو الاهواء والبدع (وانهار من خمر لذة للشاربين) وهى خمر الشوق والمحبة:

يقولون لى صفها فانت بوصفها خبير أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم

(وانهار من عسل) وهو عسل الوصال (مصفى) عن كدر الملال وخوف الزوال (ولهم فيها من كل الثمرات) اللذائذ الروحانية (ومغفرة من ربهم) ستر لذنب وجودهم كما قيل * وجودك ذنب لا يقاس به ذنب * (كمن هو خالد فى النار) نار الجفاء (وسقوا ماء حميما) وهو ماء الخذلان (فقطع أمعاءهم) من الحرمان ولو نشاء (لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) وهى ظلمة فى وجوههم تدرك بالنظر الالهى قيل: المؤمن ينظر بنور الفراسة والعارف بنور التحقيق والنبى عليه الصلاة والسلام ينظر بالله عزوجل، وقيل: كل من رزق قرب النوافل ينظر به تعالى لحديث «لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به» الحديث وحينئذ يبصر كل شىء، ومن هنا كان بعض الاولياء الكاملين يرى على ما حكى عنه أعمال العباد حين يعرج بها وسبحان السميع البصير اللطيف الخبير *

سورة القتال، وهي سورة محمد ﷺ

مدنية في قول ابن عباس؛ ذكره النحاس. وقال الماورديّ: في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه؛ فنزل عليه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾[1]. وقال الثعلبيّ: إنها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جُبَير. وهي تسع وثلاثون. وقيل ثمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾.

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدّوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه؛ وقاله السدّي. وقال الضحاك: ﴿عن سبِيلِ اللهِ﴾ عن بيت الله بمنع قاصديه. ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفَكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار. وقال ابن عباس: نزلت في المُطْعِمِين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبَيّ وأمَيّة ابنا خلف، ومُنَبّه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.

[٢] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾.

---

(١) آيـة ١٣.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنها نزلت خاصّةً في ناس من قريش. وقيل: هما عامّتان فيمن كفر وآمن. ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها. وقيل: أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة. ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى. ﴿وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ لم يخالفوه في شيء؛ قاله سفيان الثَّوْرِيّ. وقيل: صدّقوا محمداً ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم. وقيل: أي إن القرآن هو الحق من ربهم، نسخ به ما قبله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان. ﴿وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾ أي شأنهم؛ عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالهم وابن عباس: أمورهم. والثلاثة متقاربة وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم؛ ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودّ أقبل بمثله ... وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم. ﴿والبال﴾ كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه: بالات. المبرد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال: ما يخطر فلان على بالي؛ أي على قلبي. الجوهري: والبال رخاء النفس؛ يقال فلان رَخِيُّ البال. والبال: الحال؛ يقال ما بالك. وقولهم: ليس هذا من بالي؛ أي مما أباليه. والبال: الحوت العظيم من حيتان البحر؛ وليس بعربي. والبالة: وعاء الطِّيب؛ فارسي معرّب؛ وأصله بالفارسية بيلة. قال أبو ذؤيب:

كأنّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً ... لها من خلال الدَّأْيَتَيْن أرِيجُ[1]

---

(١) اللطمية: العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها. والدأي: فقر الكاهل والظهر.

[٣] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنّ الَّذينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وأنّ الَّذين آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ ذلك ﴾ فتي موضع رفع ؛ أي الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدّم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطلُ : الشركُ . والحقُّ التوحيد والإيمان . ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أي كهذا البيان الذي بُيّن يُبَيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير في ﴿ أَمْثَالَهُمْ ﴾ يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا.

[٤] ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان. وقيل: كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابي إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة؛ ذكره الماوَرْدِيّ. واختاره ابن العربي وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه؛ ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ مصدر. قال الزجاج أي فاضربوا الرقاب ضرباً. وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها. وقيل: نصب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولك يا نفسُ صبراً. وقيل: التقدير

اقصدوا ضرب الرقاب. وقال: ﴿فضرب الرقاب﴾ ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن في العبارة بضرب الرقاب من الغِلْظة والشّدة ما ليس في لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعُلْوه وأوْجَهُ أعضائه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم القتل. وقد مضى في ﴿الأنفال﴾ عند قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[1]. ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي إذا أسرتموهم. والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدراً؛ يقال: أوثقته إيثاقاً ووثاقاً. وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذي يوثق به كالرِّباط؛ قاله القشيري. وقال الجوهريّ: وأوثقه في الوثاق أي شدّه، وقال تعالى: ﴿فَشُدُّوا الوَثاق﴾. والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيه. وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يُفْلِتُوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾. ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدّم من القتل في صدر الكلام، و ﴿مَنًّا﴾ و ﴿فِدَاءً﴾ نصب بإضمار فعل. وقرىء ﴿فَدًى﴾ بالقصر مع فتح الفاء؛ أي فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً. روي عن بعضهم أنه قال: كنت واقفاً على رأس الحجاج حين أتِيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِنْدة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمّا فِدَاءً﴾ في حق الذين كفروا؛ فوالله! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم ... إذا أثقل الأعناقَ حِملُ المغارم

فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَفَ! أمَا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام!؟ خَلُّوا سبيل من بقي. فخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

---

(١) راجع ٨/ ٤٥ وما بعدها.

الثالثة ـ واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأول ـ أنها منسوخة، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يُفادوا ولا يُمَنّ عليهم. والناسخ لها عندهم قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[(١)] وقوله: ﴿فإمّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾[(٢)] وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[(٣)] الآية؛ قاله قتادة والضحاك والسدّي وابن جُرَيج والعَوْفِي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين. وقال عبد الكريم الجَوْزِيّ: كُتب إلى أبي بكر في أسير أسِر، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا؛ فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا.

الثاني ـ أنها في الكفار جميعاً. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد قالوا: إذا أسِر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين؛ ولا يجوز أن يفادَى عندهم إلا بالمرأة؛ لأنها لا تقتل. والناسخ لها ﴿فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجِزْية. وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة؛ خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين. ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فإمّا مَنًّا بَعْدُ وإمّا فِدَاء﴾ قال نسخها ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾. وقال مجاهد: نسخها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وهو قول الحكم.

الثالث ـ أنها ناسخة؛ قاله الضحاك وغيره. روى الثَّوْري عن جُوَيْبِر عن الضحاك ﴿فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ قال نسخها ﴿فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداءً﴾. وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء ﴿فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداءً﴾ فلا يقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفَادى؛ كما قال الله عز وجل. قال أشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو ﴿فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداء﴾. وقال الحسن أيضاً: في الآية تقديم وتأخير؛ فكأنه قال: فَضَرْبَ الرّقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال: ﴿حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾.

---

(١) آية ٥ سورة التوبة. (٢) آية ٥٧ سورة الأنفال. (٣) آية ٣٦ سورة التوبة.

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله؛ لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يَمُنّ، أو يفادي، أو يسترق.

الرابع ـ قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[١]. فإذا أسِر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره.

الخامس ـ أن الآية محكمة، والإمام مخيّر في كل حال؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. وهو الاختيار؛ لأن النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك؛ قَتَل النبيّ ﷺ عُقْبَةَ بن أبي مُعَيط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْراً، وفادى سائر أسارى بدر، ومَنّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده، وأخذ من سلمة بن الأكْوَع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ ﷺ ومنّ عليهم، وقد منّ على سَبْي هوازن. وهذا كله ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في ﴿الأنفال﴾[٢] وغيرها. قال النحاس: وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما؛ وهو قول حسن، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذا كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ؛ على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد، وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهور عنه ما قدّمناه، وبالله عز وجل التوفيق.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام. وعن مجاهد أيضاً: أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام؛ فَيُسْلِم كلّ يهوديّ ونصراني وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب. ونحوه

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال.

(٢) راجع ٨/ ٤٥ وما بعدها.

عن الحسن والكلبي والفرّاء والكسائي. قال الكسائي: حتى يُسْلِم الخلق. وقال الفرّاء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدِّين كله. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله. وقيل: معنى الأوزار السلاح؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح. وقيل: معناه حتى تضع الحرب، أي الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة. ويقال للكراع أوزار. قال الأعشى:

وأعـددت للحـرب أوزارهـا ... رمـاحـا طـوالاً وخيـلاً ذكـوراً
ومـن نَسْـج داود يحـدي بهـا ... علـى أثـر الحَـيّ عِيـراً فعيـرَا[1]

وقيل: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي أثقالها. والوِزْر الثِّقْل؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال. وأثقالها السلاح لثقل حملها. قال ابن العربي: «قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال؛ ليس بهذا أَمَرَنا الله؛ وقرأ ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق﴾. قلنا: قد قاله رسول الله ﷺ وفعله، وليس في تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره؛ فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد، وبين النبيّ ﷺ حكم الرجم؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ ﴿ذلك﴾ في موضع رفع على ما تقدّم؛ أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك. ويجوز أن يكون مبتدأ؛ المعنى ذلك حكم الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام؛ وهو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾[2]. أي هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا. ومعنى ﴿لَانْتَصَرَ منهم﴾ أي أهلكهم بغير قتال. وقال

---

(١) هذه رواية البيت في «الأصول». وروايته في كتاب «الأعشين»:

ومـن نسـج داود مـوضـونـة ... تسـاق مـع الحـي عيـراً فعيـرا

والموضونة: الدرع المنسوجة. وفي شعراء النصرانية:

... علـى أثـر العيـس ...

(٢) آية ٥٥ سورة صٓ.

ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة. ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهِدِين والصابرين؛ كما في السورة نفسها. ﴿والَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد قتلى أحد من المؤمنين ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قراءة العامة ﴿قاتلوا﴾ وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص ﴿قُتِلوا﴾ بضم القاف وكسر التاء، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير. وقرأ الجَحْدَرِي وعيسى بن عمر وأبو حَيْوَة ﴿قَتَلوا﴾ بفتح القاف والتاء من غير ألف؛ يعني الذين قتلوا المشركين. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله ﷺ في الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: اعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال. فقال النبيّ ﷺ: «قولوا لا سواء. قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون». فقال المشركون: إن لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك في ﴿آل عمران﴾[1].

[٥] ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾.

قال القشيري: قراءة أبي عمرو ﴿قُتِلوا﴾ بعيدة؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم؛ أي يحقق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير في القبر. قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[2] معناه فاسلكوا بهم إليها.

[٦] ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

---

(١) راجع ٤/٢٣٤.

(٢) آية ٢٣ سورة الصافات.

أي إذا دخلوها يقال لهم تفرّقوا إلى منازلكم؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين. وفي «البخاري» ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الْخُدْرِيّ، قال قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا][١] حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذِن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة [منه][١] بمنزله في الدنيا». وقيل: ﴿عرَّفها لهم﴾ أي بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال. قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف؛ أي عَرَّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم؛ فحذف المضاف. وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكّل بعمل العبد يمشي بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتي العبد منزله، ويعرّفه المَلَك جميع ما جعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الْخُدْرِيّ يردّه. وقال ابن عباس ﴿عرّفها لهم﴾ أي طيّبها لهم بأنواع الملاذ؛ مأخوذ من العَرْف، وهو الرائحة الطيبة. وطعام مُعَرَّف أي مطيّب؛ تقول العرب: عَرَفت القدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار. وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه:

عَـرُفْـتَ كـإتْـبٍ عـرّفتـه اللَّطـائـم[٢]

يقول: كما عَرُف الإتْب، وهو البَقِير والبَقِيرة، وهو قميص لا كُمين له تلبسه النساء. وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته؛ يقال: حرير معرّف؛ أي بعضه على بعض، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس. وقيل: ﴿عرفها لهم﴾ أي وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرّف أهل السماء أنها لهم إظهاراً لكرامتهم فيها. وقيل: عرف المطيعين أنها لهم.

[٧] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾.

---

(١) زيادة عن «صحيح البخاري».

(٢) اللطائم (جمع لطيمة): قطعة مسك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ أي إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وقد تقدّم[١]. وقال قُطْرُب: إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله؛ والمعنى واحد. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي عند القتال. وقيل على الإسلام. وقيل على الصراط. وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب. وقد مضى في ﴿الأنفال﴾[٢] هذا المعنى. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾[٣] ثم نفاها بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[٤]. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[٥] ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحده.

[٨] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسّره ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ كأنه قال: أتعَسَ الذين كفروا. و ﴿تعساً لهم﴾ نصب على المصدر بسبيل الدعاء؛ قاله الفرّاء، مثل سَقْياً له ورَعْياً. وهو نقيض لَعاً[٦] له. قال الأعشى:

فـالتَّعْسُ أوْلَـى لهـا مـن أن أقـول لَعَـا[٧]

وفيه عشرة أقوال: الأوّل ـ بُعْداً لهم؛ قاله ابن عباس وابن جُريج. الثاني ـ حزْناً لهم؛ قاله السدي. الثالث ـ شقاء لهم؛ قاله ابن زيد. الرابع ـ شَتْماً لهم من الله؛ قاله الحسن. الخامس ـ هلاكاً لهم؛ قاله ثَعْلَب. السادس ـ خَيْبَةً لهم؛ قاله الضحاك وابن زيد. السابع ـ قبحاً لهم؛ حكاه النقاش. الثامن ـ رغماً لهم؛ قاله الضحاك أيضاً.

---

(١) راجع ١٢/ ٧٢. (٢) راجع ٧/ ٣٧٧. (٣) آية ١١ سورة السجدة.
(٤) آية ٤٠ سورة الروم.
(٥) آية ٢ سورة الملك.
(٦) لعا: كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع.
(٧) في «اللسان» وكتاب «الأعشين»: «أدنى» بدل «أولى». وصدره:
بذات لوث عفرناة إذا عثرت
واللوث (بالفتح): «القوّة». وعفرناة: قرية.

التاسع ـ شَرًّا لهم؛ قاله ثعلب أيضاً. العاشر ـ شِقْوة لهم؛ قاله أبو العالية. وقيل: إن التَّعْس الانحطاط والعِثار. قال ابن السِّكِّيت: التعس أن يَخِر على وجهه. والنَّكس أن يَخِرّ على رأسه. قال: والتعس أيضاً الهلاك. قال الجوهري: وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش. وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْساً، وأتعسه الله. قال مُجَمع بن هلال:

تقول وقد أفردْتُها من خَلِيلها تَعِسْتَ كما أتْعَسْتَنِي يا مُجَمَّعُ

يقال: تعساً لفلان؛ أي ألزمه الله هلاكاً. قال القُشَيْرِيّ: وجوّز قوم تَعِس (بكسر العين).

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطِي رَضِيَ وإن لم يُعْطَ لم يرض» خرّجه البخاري. في بعض طرق هذا الحديث «تعس وانتكس وإذا شِيك فلا انتقش»[2] خرّجه ابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان. ودخلت الفاء في قوله ﴿فَتَعْساً﴾ لأجل الإبهام الذي في ﴿الذين﴾، وجاء ﴿وأضل أعمالهم﴾ على الخبر حملاً على لفظ الذين؛ لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حَمْلاً على المعنى، وأضل حملاً على اللفظ.

[٩] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾.

أي ذلك الإضلال والإتعاس؛ لأنهم ﴿كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقْبَل الله العمل إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم.

[١٠] ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) القطيفة: دثار. والخميصة: كساء أسود مربع له أعلام وخطوط.
(٢) قوله «شيك» أي أصابته شوكة. و «فلا انتقش» أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش.

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان، ثم وصل هذا بالنظر؛ أي ألم يَسِر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلكهم واستأصلهم. يقال: دمّره تدميراً، ودمّر عليه بمعنًى. ثم تواعد مشركي مكة فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي أمثال هذه الفعلة؛ يعني التدمير. وقال الزجاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة؛ أي وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا.

[١١] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾.

أي وليّهم وناصرهم. وفي حرف ابن مسعود ﴿ذلك بأن الله وليّ الذين آمنوا﴾. فالمولى: الناصر هاهنا؛ قاله ابن عباس وغيره. قال:

فغَدتْ كِلاَ الفَرْجَيْن تحسِب أنه مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[١]

قال قتادة: نزلت يوم أُحُد والنبيّ ﷺ في الشِّعب، إذ صاح المشركون: يومٌ بيوم، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم؛ فقال النبيّ ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدّم[٢]. ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي لا ينصرهم أحد من الله.

[١٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) البيت من معلقة لبيد. ويروى: «فعدت» بالعين المهملة. أخبر أنها (أي البقرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها. والفرج: الواسع من الأرض. والفرج: الثغر المخوف، وهو موضع المخافة.

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهار﴾ تقدّم في غير موضع. ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ فِي الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عما في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي مقام ومنزل.

[١٣] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام في ﴿ كأين ﴾ في ﴿آل عمران ﴾[1]. وهي هاهنا بمعنى كم؛ أي وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة ومفتاحِ قَيْد للأسير المكبل

فيكون معناه: وكم من أهل قرية. ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها . ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبيّ ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إليّ ولولا المشركون أَهْلُكِ أخرجوني لما خرجت منك». فنزلت الآية؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

[١٤] ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى ﴿على بينة﴾ أي على ثبات ويقين؛ قاله ابن عباس. أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوَحْيُ. ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار.

---

(١) راجع ٢٢٨/٤.

وقال ﷺ: «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس». فشبّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقّص مسلماً أو ثَلَم عرضه فهو كالآكل لحمه حيًّا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً. وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمُشُون وجوههم وصدورهم فقلت مَن هؤلاءِ يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سُمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». وقد تقدّم قوله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين». وقوله للرجلين: «مالي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما». وقال أبو قِلابة الرقاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحداً مذ عرفت ما في الغِيبة. وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحداً، ولا يدع أحداً يغتاب أحداً عنده؛ ينهاه فإن انتهى وإلا قام. وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبيّ ﷺ فرأوا في قيامه عجزاً فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلاناً! فقال: «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه». وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغِيبة أن تقول إن فلاناً جَعْدٌ قَطَطٌ[1]؛ إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر؛ فقال: إياك والغِيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك؛ قال إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

---

(١) الجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذمًّا؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوّة) والخلق. أو يكون جَعد الشعر، وهو ضدّ السبط. وأما الذم فهو القصير المتردّد الخلق. وقد يطلق على الجعد أيضاً؛ يقال: رجل جعد اليدين. والقطط: القصير الجعد من الشعر.

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي لم يحْمَض بطول المقام كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لم تُدَنّسها الأرجل ولم تُرَنّقها[1] الأيدي كخمر الدنيا؛ فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. يقال: شراب لَذّ ولذِيذ بمعنًى. واستلذّه عدّه لذيذاً. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النحل. ﴿مُصَفًّى﴾ أي من الشمع والقَذَى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل. وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقّق الأنهار بعدُ». قال: حديث حسن صحيح. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة». وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سَيْحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر. والعسل: يذكر ويؤنث. وقال ابن عباس: ﴿من عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي لم يخرج من بطون النحل. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار. وقال الزجاج: أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيّن له سوء عمله وهو خالد في النار. فقوله ﴿كمن﴾ بدل من قوله ﴿أفمن زين له سوء عمله﴾. وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم. ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم. ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً﴾ أي حاراً شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِيعان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

(١) رنّق الماء: كدره.

«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمِل عليه». وقد تقدّم هذا المعنى في سورة ﴿آل عمران﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ﴾[١]. وقد روي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت أمرأة: ما أطول ذيلها! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلّيها. فدلت الآثار عن النبيّ ﷺ أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها. وأما قول من قال: إنما الغيبة في المال والبدن؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه؛ وذلك ليس في البدن ولا في المال. ففي ذلك دليل على أن الظلم في العِرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى في القاذف: ﴿فإذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[٢]. وقال رسول الله ﷺ: «من بَهَتَ مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في طِينة الخبال»[٣]. وذلك كله في غير المال والبدن. وأما من قال : إنها مظلمة، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها؛ لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم ؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزِلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بحجة، وقد قال النبيّ ﷺ: «من كانت له عند أخيه مظلمة في عِرْض أو مال فليتحللها منه». وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله، ورأى أنه لا يحل له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمني . وقيل لابن سيرين: يا أبا بكر، هذا رجل

---

(١) راجع ٢٦٨/٤.

(٢) آية ١٣ سورة النور.

(٣) الخبال: الفساد؛ ويكون في الأفعال والأبدان والعقول. و «طينة الخبال»: عصارة أهل النار.

وقال آخر(١):

إن الشِّـواء والنَّشِيـل والـرُّغُـفْ والْقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيل والخيل قُطُفْ(٢)

وقال امرؤ القيس:

قـد غَـدَا يحملنـي فـي أنفـه(٣)

أي في أوّله. وأَنُفُ كلّ شيء أوّله. وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى. وقيل: زادهم النبيّ عليه السلام هدى. وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدى؛ أي يتضاعف يقينهم. وقال الفرّاء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى. وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل: **أحدها** ـ زادهم علماً؛ قاله الربيع بن أنس. **الثاني** ـ أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا؛ قاله الضحاك. **الثالث** ـ زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيهم؛ قاله الكلبيّ. **الرابع** ـ شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي ألهمهم إياها. وقيل: فيه خمسة أوجه: **أحدها** ـ آتاهم الخشية؛ قاله الربيع. **الثاني** ـ ثواب تقواهم في الآخرة؛ قاله السديّ. **الثالث** ـ وفقهم للعمل الذي فرض عليهم؛ قاله مقاتل. **الرابع** ـ بيّن لهم ما يتقون؛ قاله ابن زياد والسدّي أيضاً. **الخامس** ـ أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ؛ قاله عطية. الماورديّ: ويحتمل **سادساً** ـ

---

(١) هو لقيط بن زرارة. والنشيل: ما طبخ من اللحم بغير تابل. والرغف جمع رغيف. ويقال: أرغفة ورغفان.

(٢) في «الأصول»: «حنف» والتصويب عن اللسان مادة «قطف». وقد ورد هذا الشطر في اللسان مادة «نشل»: «للضاربين الهام والخيل قطف». وقطفت الدابة: أساءت السير وأبطأت.

(٣) تمامه:

لاحق الأيطل محبوك ممرّ

أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم. وقرىء ﴿وأعطاهم﴾ بدل ﴿وآتاهم﴾ وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب.

[١٨] ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ أنْ تأتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة. وهذا وعيد للكفار. ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي أماراتها وعلاماتها. وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء؛ فَبَعْثُهُ من أشراطها وأدلتها؛ قاله الضحاك والحسن. وفي «الصحيح» عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضمّ السبابة والوسطى؛ لفظ مسلم. وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه. ويروى «بعثت والساعة كَفَرَسَيْ رِهَان». وقيل: أشراط الساعة أسبابُها التي هي دون معظمها. ومنه يقال للدُّون من الناس: الشَّرَط. وقيل: يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان؛ قاله الحسن أيضاً. وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفًى والحمد لله. وواحد الأشراط شَرَط؛ وأصله الأعلام. ومنه قيل الشُّرَط؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها. ومنه الشَّرْط في البيع وغيره. قال أبو الأسود:

فإن كنتِ قد أزْمَعْتِ بالصُّرْم بيننا ... فقد جعلت أشراط أوّله تبدو

ويقال: أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حَجَر يصف رجلاً تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَة[١] يقطعها ليتّخذ منها قَوْساً:

فأشْرَط نفسَه فيها وهو مُعْصِمٌ ... وألْقَى بـأسبـابٍ لـه وتَـوَكّـلاَ

---

(١) النبعة (واحدة النبع): شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القِسِيّ.

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ ﴿أن﴾ بدل اشتمال من ﴿الساعة﴾؛ نحو قوله: ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجالٌ مؤمِنون ونِساءٌ مؤمناتٌ﴾[١]. وقرىء ﴿بَغَتَّة﴾ بوزن جَرَبَّة[٢]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها؛ وهي مَرْوِية عن أبي عمرو. الزمخشريّ: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب ﴿بَغَتة﴾ بفتح الغين من غير تشديد؛ كقراءة الحسن. وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة ﴿إِنْ تَأْتِهِم بغتة﴾. قال المهدويّ: ومن قرأ ﴿إن تأتِهِم بغتة﴾. كان الوقف على ﴿الساعة﴾ ثم استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق؛ كأنه قال: إن شكُّوا في مجيئها ﴿فقد جاء أشراطها﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ ﴿ذِكراهم﴾ ابتداء و ﴿أنَّى لَهُمْ﴾ الخبر. والضمير المرفوع في ﴿جاءتهم﴾ للساعة؛ التقدير: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؛ قال معناه قتادة وغيره. وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة؛ قاله ابن زيد. وفي الذكرى وجهان: أحدهما ـ تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر. الثاني ـ هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً؛ روى أبان عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك» ذكره الماوَرْدِيّ.

[١٩] ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قال الماورديُّ: وفيه ـ وإن كان الرسول عالماً بالله ـ ثلاثة أوجه: يعني أعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني ـ ما علمتَه استدلالاً فأعلمه خبراً يقيناً. الثالث ـ يعني فاذكر أن لا إله إلا الله؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح.

(٢) الجربّة (بالفتح والتشديد): القطيع من حُمُر الوحش. وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين: جربة.

لحدوثه عنه. وعن سفيان بن عُيَيْنة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفِرْ لِذنبِك﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿اعلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى قوله ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١] وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢]. ثم قال بعدُ: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[٤]. ثم أمر بالعمل بعدُ.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِر لِذَنْبِكَ﴾ يحتمل وجهين: **أحدهما** - يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب. **الثاني** - استغفر الله ليعصمك من الذنوب. وقيل: لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار. وقيل: الخطاب له والمراد به الأمة؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين. وقيل: كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية. أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله، فلا تعلق قلبك بأحد سواه. وقيل: أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ولذنوبهم. وهذا أمر بالشفاعة. وروى مسلم عن عاصم الأحْوَل عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال: أتيت النبيّ ﷺ وأكلت من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبيّ ﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثم تلا هذه الآية ﴿واستغفِرْ لِذَنْبِك ولِلمؤمِنِين والمؤمِناتِ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، جُمُعاً[٥] [عليه][٦] خِيلان كأنه الثآليل.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: **أحدها** - يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم. **الثاني** - متقلبكم في أعمالكم نهاراً ﴿ومثواكم﴾ في ليلكم نياماً. وقيل

---

(١) آية ٢٠ سورة الحديد. (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال.

(٣) في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ آية ١٤ سورة التغابن.

(٤) آية ٤١ سورة الأنفال.

(٥) يريد مثل جُمع الكف، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها.

(٦) زيادة عن «صحيح مسلم». والخيلان: جمع خال، وهو الشامة في الجسد. والثآليل: جمع ثؤلول، وهي حبيبات تعلو الجسد.

﴿متقلبكم﴾ في الدنيا. ﴿ومثواكم﴾ في الدنيا والآخرة؛ قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: ﴿متقلبكم﴾ في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. ﴿ومثواكم﴾ مقامكم في الأرض. وقال ابن كَيْسان: ﴿متقلبكم﴾ من ظهر إلى بطن إلى الدنيا. ﴿ومثواكم﴾ في القبور.

قلت: والعموم يأتي على هذا كله، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، وكذا وجميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلاً أُولَى وَأُخْرَى. سبحانه! لا إله إلا هو.

[٢٠] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذينَ آمَنُوا﴾ أي المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقاً للوحي وحرصاً على الجهاد وثوابه. ومعنى ﴿لولا﴾ هلا. ﴿فَإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشدّ القرآن على المنافقين. وفي قراءة عبد الله ﴿فإذا أنزِلت سورة مُحْدَثَة﴾ أي محدثة النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ﴾ أي فرض فيها الجهاد. وقرىء ﴿فإذا أنزِلت سورة وذَكر فِيها القِتالَ﴾ على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق. ﴿يَنْظُرُونُ إلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق؛ كمن يَشْخَص بصره عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهلعاً، ولميلهم في السر إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْروفٌ﴾ ﴿فأوْلَى لهم﴾ قال الجوهريّ: وقولهم: أوْلَى لك، تَهَدُّد ووعيد. قال الشاعر:

فأوْلَى ثم أوْلَى ثم أوْلَى ... وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قاربَه ما يُهْلكه؛ أي نزل به. وأنشد:

فعـادَى بيـن هـادِيَتَيْـن منهـا وأوْلَـى أن يـزيـد علـى الثـلاث

أي قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في ﴿أوْلى﴾ أحسن مما قال الأصمعي.

وقال المبرد: يقال لمن هَمّ بالعَطَب ثم أفْلَت: أوْلى لك؛ أي قاربت العطب. كما روي أن أعرابياً كان يوالي رَمْيَ الصيد فيُفْلِت منه فيقول: أولى لك. ثم رمى صيداً فقاربه ثم أفلت منه فقال:

فلو كان أوْلَى يُطعِم القومَ صِدْتُهم ولكنّ أوْلَى يَتْرُكُ القومَ جُوّعَا

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أيّ شيء فاتك! وقال الجُرْجَانِيّ: هو مأخوذ من الويل؛ فهو أفعل، ولكن فيه قلب؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام. وقد تم الكلام على قوله: ﴿فأوْلى لهم﴾. قال قتادة: كأنه قال العقاب أوْلَى لهم. وقيل: أي وَلِيَهُمْ المكروه. ثم قال: «طاعة وقول معروف» أي طاعة وقول معروف أمثل وأحسن؛ وهو مذهب سيبويه والخليل. وقيل: إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف؛ فحذف المبتدأ فيوقف على ﴿فأوْلَى لهم﴾. وكذا من قدّر يقولون منا طاعة. وقيل: إن الآية الثانية متصلة بالأولى. واللام في قوله ﴿لهم﴾ بمعنى الباء؛ أي الطاعة أولى وأليق بهم، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله. وهي قراءة أُبَيّ ﴿يقولون طاعة﴾. وقيل: إن ﴿طاعة﴾ نعت لـ ﴿سورة﴾؛ على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة، فلا يوقف على هذا على ﴿فأوْلى لهم﴾ وقال ابن عباس: إن قولهم ﴿طاعة﴾ إخبار من الله عز وجل عن المنافقين. والمعنى لهم طاعة وقول معروف قيل وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها. فيوقف على هذا على ﴿فأولَى﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أي جدّ القتال، أو وجب فرض القتال، كرهوه. فكرهوه جواب ﴿إذا﴾ وهو محذوف. وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي في الإيمان والجهاد. ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

[٢٢] ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[٢٣] ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فقيل: هو من الولاية. قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعِلتم حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا . وقال الكلبيّ : أي فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام. وقال كعب: المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضاً. وقيل: من الإعراض عن الشيء. قال قتادة: أي فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطّعوا أرحامكم . وقيل : ﴿ فهل عسيتم ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرىء بفتح السين وكسرها. وقد مضى في ﴿ البقرة ﴾ القول فيه مستوفًى[1] . وقال بكر المزني: إنها نزلت في الحَرُورِيّة والخوارج ؛ وفيه بُعْدٌ . والأظهر أنه إنما عنى بها المنافقون. وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيب بن شريك والفرّاء ، قالا : نزلت في بني أمية وبني هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبيّ ﷺ يقول: « ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسِدوا فِي الأرض ﴾ ـ ثم قال ـ هم هذا الحيّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم». وقرأ علي بن أبي طالب ﴿ إن تُوُلِّيتم أن تفسِدوا فِي الأرض ﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رُوَيْس عن

---

(١) راجع ٣/ ٢٤٤.

يعقوب. يقول: إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم. ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغي والظلم والقتل. وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم ﴿وَتَقْطَعوا﴾ بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[١]. وروى هذه القراءة هارون عن أبي عمرو. وقرأ الحسن ﴿وَتَقَطّعوا﴾ مفتوحة الحروف مشدّدة؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بينهم﴾[٢]. الباقون ﴿وَتُقَطِّعوا﴾ بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير؛ وهو اختيار أبي عبيد. وتقدّم ذكر ﴿عسيتم﴾ في ﴿البقرة﴾[٣]. وقال الزجاج: في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز ﴿عَسِي﴾ بالكسر. قال الجوهريّ: ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر. وقرىء ﴿فهل عَسِيتم﴾ بالكسر.

قلت: ويدل قوله هذا على أنهما لغتان. وقد مضى القول فيه في ﴿البقرة﴾ مستوفى[٣]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ أي قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه؛ فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: ﴿فهل عسيتم﴾ ثم قال: ﴿أُولَئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فرجع من الخطاب إلى الغَيْبَة على عادة العرب في ذلك.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام. ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون. وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبهم. وفي حديث مرفوع أن النبيّ ﷺ قال: «إن عليها أقفالاً كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها». وأصل القَفْل اليُبْس والصلابة. ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل. والقفِيل مثله. والقفِيل أيضاً نبت. والقفِيل: الصوت. قال الراجز:

لمـا أتـاك يـابسـاً قِـرْشَبّـا قمـت إليـه بـالقِفيـل ضـربـا

كيـف قـرَيْـتَ شَيْخَـك الأَزَبّـا[٤]

---

(١) آية ٢٧ سورة البقرة. (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء.

(٣) ٣/ ٢٤٤. (٤) الأزب (بالفتح والتشديد): الكثير الشعر.

القِرْشَبّ (بكسر القاف): المسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم أي أيبسه؛ قاله القشيريّ والجوهريّ. فالأقفال هاهنا إشارة إلى ارتجاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله تعالى صبع على قلوبهم وقال: ﴿على قلوبٍ﴾ لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غير م في هذه الجملة. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها.

الثالثة ـ في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وَصلكِ وأقطع مَن قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ ـ ثم قال رسول الله ﷺ ـ اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عَسَيتم إن توَلّيتم أن تُفسِدوا فِي الأرضِ وتقطّعوا أرحامكم. أولئك الذِين لعنهم الله فأصمّهم وأعْمَى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها﴾». وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء، قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلّوا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصوا الرّحمن. فالرحِم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان، التي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخْوَة﴾[1]. وعلى قول الفرّاء أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية؛ والمراد من أضمر منهم نفاقاً؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبيّ ﷺ. وذلك يوجب القتال. وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة؛ فالعامة رَحِم الدِّين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى مِن غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم. وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات.

وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بديء بالأقرب فالأقرب. وقال بعض أهل العلم: إن الرحم التي تجب صلتها هي كل رَحِم مَحْرَم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَماً كان أو غير محرم. فيخرج من هذا أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال، قربةً ودينية؛ على ما ذكرناه أولاً والله أعلم. وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده قال: حدّثنا شعبة قال أخبرني محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظِي يحدّث عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن للرحم لساناً يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا رب أُسِيء إليّ فيجيبها ربُّها ألا تَرْضَين أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعك». وفي «صحيح مسلم» عن جُبير بن مُطْعِم عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». قال ابن أبي عمر قال سفيان: يعني قاطع رَحِم. ورواه البخاري.

الرابعة ـ قوله عليه السلام: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم...» ﴿خلق﴾ بمعنى اخترع وأصله التقدير؛ كما تقدّم[1]. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هذا خَلْقُ اللَّهِ﴾[2] أي مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم» كمل خلقهم. لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة؛ تعالى عن ذلك. وقوله: «قامت الرّحم فقالت» يحمل على أحد وجهين: **أحدهما ـ** أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثواب من وصلها ووزر مَن قطعها؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين. **وثانيهما ـ**

---

(١) راجع ١/٢٢٦. (٢) آية ١١ سورة لقمان.

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء. فكأنه قال: لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ـ ثم قال ـ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. وقوله: «فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام الإخبار بتأكّد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من ٱستجار به فأجاره، وأدخله في ذمته وخُفارته[2]. وإذا كان كذلك فجارُ الله غير مخذول وعهدُه غير منقوض. ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم: «أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع من قطعكِ». وهذا كما قال عليه السلام: «ومن صلى الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه بذمته بشيء يدركه ثم يَكُبّه في النار على وجهه».

[٢٥] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبي ﷺ بعدما عرفوا نعته عندهم؛ قاله ابن جريج. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون، قعدوا عن القتال بعدما علموه في القرآن. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زيّن لهم خطاياهم؛ قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أي مَدّ لهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر؛ عن الحسن أيضاً. وقال: إن الذي أملى لهم في الأمر ومدّ في آجالهم هو الله عز وجل؛ قاله الفرّاء والمفضل. وقال الكَلْبِيّ ومُقاتل: إن معنى «أملى لهم» أمهلهم؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لهم بالإمهال في عذابهم. وقرأ أبو عمرو وٱبن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة ﴿وَأُمْلِيَ لهم﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء؛ على ما لم يسمّ فاعله. وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والْجَحْدَرِي ويعقوب، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم؛ كأنه قال: وأنا أملي لهم. واختاره أبو حاتم، قال: لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

---

(١) آية ٢١ سورة الحشر. (٢) الخفارة (بالضم والكسر): الذمام.

يملي لهم، وليس كذلك؛ فلهذا عدل إلى الضم. قال المهدويّ: ومن قرأ ﴿وأَمْلَى لهم﴾ فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل: الشيطان. واختار أبو عبيد قراءة العامة، قال: لأن المعنى معلوم؛ لقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾[١] ردّ التسبيح على اسم الله، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول.

[٢٦] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا في الكفر بأنهم قالوا؛ يعني المنافقين واليهود. ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر. وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه. وقراءة العامة ﴿أسرارهم﴾ بفتح الهمزة، جمع سِرّ؛ وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿إسرارهم﴾ بكسر الهمزة على المصدر؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾[٢] جُمع لاختلاف ضروب السِّرّ.

[٢٧] ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف تكون حالهم. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي ضاربين؛ فهو في موضع الحال. ومعنى الكلام التخويف والتهديد؛ أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في ﴿الأنفال والنحل﴾[٣]. وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه. وقيل: ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله

(١) آية ٩ سورة الفتح.
(٢) آية ٩ سورة نوح.
(٣) راجع ٨/٢٨ و ١٠/٩٩.

ﷺ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار.

[٢٨] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك جزاؤهم. ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: هو كتمانهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ. وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك؛ على ما تقدّم.

[٢٩] ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ۝٢٩﴾.

[٣٠] ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق وشك؛ يعني المنافقين. ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه. واختلف في معناه؛ فقال السدّي: غِشّهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قُطْرُب: عداوتهم. وأنشد قول الشاعر:

قل لابن هند ما أردت بمنطق ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل: أحقادهم. واحدها ضغن. قال:

وذي ضِغـن كففـت النفـس عنـه

وقد تقدّم. وقال عمرو بن كلثوم:

وإن الضغن بعد الضغن يفشو عليـك ويخـرج الـداء الـدفينـا

قال الجوهريّ: الضغن والضغينة: الحقد. وقد ضغِن عليه (بالكسر) ضِغْناً. وتضاغن القومُ واْضطَغَنُوا أبطنوا على الأحقاد. واْضطَغَنت الصبيَّ إذا أخذته تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كـــأنــــه مُضْطَغِـــنٌ صَبِيّـــا

أي حامله في حجره. وقال ابن مُقْبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضها ومِرْفَقٍ كَرِئاس السيف إذ شَسَفَا[1]

وفرس ضاغنٌ لا يعطي ما عنده من الجَرْيِ إلا بالضرب. والمعنى: أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي لعرّفناكهم. قال ابن عباس: وقد عرّفه إياهم في سورة ﴿براءة﴾[2]. تقول العرب: سأريك ما أصنع؛ أي سأعلمك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بما أرَاكَ الله﴾[3] أي بما أعلمك. ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيْمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم. قال أنس: ما خفي على النبيّ ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم. وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم[4] الناس، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم. وقال ابن زيد: قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأبَوْا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيـــر الكـــلام مـــا كـــان لَحْنَـــا

أي ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرَّح به. مأخوذ من اللحن في الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» أي أذهب بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام. أبو زيد:

---

(١) المغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع. و «رئاس السيف»: مقبضه. و «الشاسف»: اليابس من الضمر والهزال.

(٢) راجع ١٩٦/٨.   (٣) آية ١٠٥ سورة النساء.

(٤) في نسخ الأصل: «يشكونهم».

لَحَنْتُ له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْناً إذا قُلْتَ له قَوْلاً يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عَنّي (بالكسر) يلحنه لحناً أي فهمه. وألحنته أنا إياه، ولاحنت الناس فاطنتهم؛ قال الفَزارِيّ:

وحـديـثٍ أَلَـذُّه هـو ممـا ... يَنْعَـت الناعِتُـونَ يُـوزَن وزْنـاً

منطـقٌ رائـعٌ وتَلْحَـنُ أحيـا ... ناً وخير الحديث ما كان لحنَا

يريد أنها تتكلم [بشيء] وهي تريد غيره، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾. وقال القَتّال الكِلاَبِيّ: :

ولقد وَحَيْت[1] لكم لكيما تفهموا ... ولَحَنْتُ لحناً ليس بالمرتاب

وقال مرار الأسدي:

ولحنتِ لحناً فيه غشٌّ ورابني ... صدودُك تُرْضين الوشاةَ الأعادِيا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه. وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبي ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم؛ والنبي ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم. قال أنس: فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إياه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منها.

[٣١] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور. وقيل: لنعاملنكم معاملة المختبرين. ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ حتى نميز. وقال عليّ رضي الله عنه. ﴿حتى نعلم﴾ حتى نرى. وقد مضى

(١) في «اللسان»: «لحنت».

في ﴿البقرة﴾[1]. وقراءة العامة بالنون في ﴿نَبْلُوَنَّكُمْ﴾ و ﴿نَعلم﴾ ﴿ونَبْلُوَ﴾. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ. وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من ﴿نبلو﴾ على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾. وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلم المجاهدين علم شهادة؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة. ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ نختبرها ونظهرها. قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضيل بن عِيَاض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللَّهُمّ لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

[٣٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٣٢﴾.

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود. وقال ابن عباس: هم المطعمون يوم بدر. نظيرها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية[2]. ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي عادَوه وخالفوه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي علموا أنه نبيّ بالحجج والآيات. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ثواب ما عملوه.

[٣٣] ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٣﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه. ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي حسناتكم بالمعاصي؛ قاله الحسن. وقال الزُّهْرِي: بالكبائر. ابن جُريج: بالرياء والسمعة.

---

(١) راجع ٢/١٥٦ طبعة ثانية. (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال.

وقال مقاتل والثُّمَالِيّ: بالمَنّ؛ وهوخطاب لمن كان يمنّ على النبيّ ﷺ بإسلامه. وكلّه متقارب، وقول الحسن يجمعه. وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان.

الثانية ـ احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوّع ـ صلاةً كان أو صوماً ـ بعد التلبس به لا يجوز؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعيّ وغيره ـ: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه. فأمّا ما كان نفلاً فلا؛ لأنه ليس واجباً عليه. فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه. ووجه تخصيصه أن النفل تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييراً وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم.

[٣٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه(١). وقيل: إن المراد بالآية أصحاب القَليب(٢). وحكمها عام.

[٣٥] ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي تضعفوا عن القتال. والوَهن: الضعف. وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره، يتعدّى ولا يتعدّى. قال:

إنني لست بمَوْهُونٍ فَقِرْ(٣)

---

(١) راجع ٣/٤٨.
(٢) المراد به قليب بدر.
(٣) هذا عجز بيت لطرفة، وصدره:
وإذا تلسنني ألسنها

ووهِن أيضاً (بالكسر) وَهْناً أي ضعف، وقرىء ﴿فما وهِنُوا﴾ بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في ﴿آل عمران﴾[1].

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي الصلح. ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم أعلم بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة. وقيل: المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال. وقال قتادة: لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

الثالثة - واختلف العلماء في حكمها؛ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[2]؛ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وقيل: هي محكمة، والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إن قوله ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة. فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين. وقد مضى هذا المعنى مستوفى[2]. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي بالنصر والمعونة؛ مثل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]. ﴿وَلَنْ يَترِكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه الموتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه؛ تقول منه: وتَرَه يَتِره وَتْراً وتِرَةً. ومنه قوله عليه السلام: «من فاتته صلاة العصر فكانما وَتَر أهله وماله» أي ذهب بهما. وكذلك وَتَرَه حقّه أي نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينتقصكم في أعمالكم؛ كما تقول: دخلت البيت؛ وأنت تريد في البيت؛ قاله الجوهريّ. الفرّاء: ﴿ولن يَتِرَكُمْ﴾ هو مشتق من الوتر وهو الفرد؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب.

---

(١) راجع ٤/ ٢٣٠.

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال. راجع ٨/ ٣٩.

(٣) آية ٦٩ سورة العنكبوت.

[٣٦] ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّم في ﴿الأنعام﴾[1]. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة؛ بل أمر بإخراج البعض؛ قاله ابن عُيينة وغيره. وقيل: ﴿لا يسألكم أموالكم﴾ لنفسه أو لحاجة منه إليها؛ إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم. وقيل: ﴿لا يَسألكم أموالَكم﴾ إنما يسألكم أمواله؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها. وقيل: ولا يسألكم محمد أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[2] الآية. ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يلحّ عليكم؛ يقال: أحْفَى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد. والحَفِيّ المستقصِي في السؤال؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربه أي استقصى في أخذه. ﴿تَبْخَلُوا ويُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي يخرج البخل أضغانكم. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن وحُمَيد ﴿وتَخْرُجْ﴾ بتاء مفتوحة وراء مضمومة. ﴿أضغانُكُمْ﴾ بالرفع لكونه الفاعل. وروى الوليد عن يعقوب الحضرميّ ﴿ونخرج﴾ بالنون. وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ويخرجُ﴾ بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف. والمشهور عنه ﴿ويُخْرِجِ﴾ كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

[٣٨] ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) راجع ٦/٤١٤.
(٢) آية ٥٧ سورة الفرقان.

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ ﴾ أي ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدْعَوْن ﴿ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي في الجهاد وطريق الخير. ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ ﴾ أي على نفسه أي يمنعها الأجر والثواب . ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم . ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ إليها . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي أطوع لِلَّه منكم . روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قالوا : ومن يُستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله ﷺ على مَنْكِب سَلْمان ثم قال : « هذا وقومه . هذا وقومه » قال: حديث غريب في إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تَوَلَّينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله ﷺ قال : فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان ، قال : « هذا وأصحابه. والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنُوطاً بالثُّرَيّا لتناوله رجال من فارس » . وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبيّ : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِيناً ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد. وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون. وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قال الطبريّ : أي في البخل بالإنفاق في سبيل الله . وحكى عن أبي موسى الأشعريّ أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله ﷺ وقال : « هي أحبّ إليّ من الدنيا » . والله أعلم.